

الإبداع العربي

قصص قصيرة

شرخ في شرنقة الصمت

عبد العزيز الشناوي



الهيئة المصرية العامة للكتاب



شرخ في شرنقة الصمت

الاخراج الفنى : سهير معطى

شرخ فى شرنقة الصمت

قصص قصيرة

عبد العزيز الشناوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٥

إهـــــداء

الى أحمد وأسماء وزينب ••

أطفـــالى

عبد العزيز الشناوى

شرخ فى شرنقة الصمت

« يا بيض اليمام يا عنب »

أفلتت من بين شفتى تنهيدة ملتهبة . أشياء حارقة تملأ أعماقى؟ تتزاحم فى صدرى ؟ تنحشر فى حلقى ؟ حزن .. سخط . ألم ؟ اشعلت كلمات طبيب الوحدة المجمعة نار الخوف فى قلبى .. ؟ :

ـ ابنك فى حاجة الى عملية جراحية .. عاجلة .

ـ ألا يمكن الانتظار ... ؟

ـ هناك أشياء لا تقبل التأجيل .

جذبت قفص الخيار تحت المظـــلة . لو انتظر التمـــورجى لحظة حتى أكمل حديثى مع الدكتور ؟ لكنه دفعنى نحو الباب . استدعى غيرى من الطابورين الطويلين .

قلبت احدى ثمار الخيار فى يدى . لماذا تبدو ذابلة هكذا ؟ ترك عبد الغنى الأقفاص فى الشمس طويلا .. ؟ كلت حيلة الحلاق

سع ابنى · زاد شحوب وجهه · هزال جسمه · نصحنى أن أصحبه الى الطبيب ·· قلت لنفسى ألا يريد نقودا ليكشف عليه ؟ لابد أنه سيكتب روشتة ·· جيبى خال · الشفاء من عند الله · كان أبى يرفض الذهاب الى المستشفى اذا ألم به المرض :

ـ الحكيم ربنا ··

« يا بيض اليمام يا عنب »

مرت أمامى امرأة ترتدى ثوبا بلون قوس قزح · عندما عدت من الوحدة المجمعة أجر قدمى · كنت فى حاجة الى كلمة رقيقة · بسمة حنون · تريحنى · تخفف من الآلام · الأحزان · الحيرة التى تضغط على صدرى · لكن زوجتى جلست بجوارى · وضعت يدها على خدها لتظهر ثوبها عند الصدر والكتف :

ـ هات كيلتين ذرة · أربع كيلات قمح لأجهز الطحين · ماذا تنتظر ·· اقترب العيد ·· !

ـ كل عام وانت طيبة ·· حافظة نقودى خاوية ·

هبت واقفة · وضعت يدها فى خاصرتها · هزت رأسها :

ـ نعم ·· نعم ·· أتدعى ذلك لكيلا تشترى لى ثوبا جديدا ؟

قذفت فى وجهها حافظة النقود الخالية ·

تعلقت عيناى بالسحب الرمادية المهلهلة · عندما سمع ابنى الأكبر زعيق أمه أقبل نحونا · جرت يده على جلبابه الممزق :

ـ غاب لونه « لحسه » لسان الشمس · كيف أرتديه فى العيد ؟

التف حولى بقية أولادى · راح كل واحد يطلب جلبابا ·

حط الذباب على قفص البلح · أمسكت المنشة · عادت المرأة صاحبة الثوب الملون الجديد · رن صوت زوجتى فى أذنى :

ـ ألا تجد حيلة لهذه الدار ؟ الى متى سنتركها خرابا مباحا للريح والمطر ؟ العيد قادم ٠٠ بأى وجه سنقابل أهل القرية ؟

شيء ثقيل كالحزن يعشش فى أعماقى ٠ أسندت ظهرى الى الحجر الكبير الراقد بجانبى كان الهواء يصفر فى الحجرة التى ينام فيها ابنى ٠ أكل الناموس وجهه ٠ صار جسده كالفرن ٠ ظننت أن الأمر مجرد لفحة برد ٠٠ لكن ٠٠٠

ارتفع صوت رشـوان ٠ ماذا حدث ؟ يساوم المـرأة صاحبة الثوب الذى بلون قوس قزح ؟

امس تشاجرت مع صاحب الدار :

ـ مرت خمسة أشـهر ولم تدفع ايجـارا ٠ تراكمت عليك النقود ٠

ـ تفرج ٠٠ الشهر القادم ٠

ـ خمسون قرشا ايجار كل شهر ٠ وتقول لى تفرج ؟ ملعون يوم تأجير الدار لك ٠

سكنت النشـوة فى يدى ٠ ليـلة أن أجرت الدار ٠ كادت زوجتى ترقص :

ـ الحمد لله ٠ هدية من السماء ٠ نصف جنيه ايجـار ٠٠؟ « يا بلاش » ٠

رغـم ضآلة الخمسـين قرشـا ٠٠ تراكم عليك ايجار خمسة أشهر ٠٠ !

« يا بيض اليمام يا عنب »

زحفت أشعة الشمس نحو قفص الخيار ٠ منذ قليل رفض عبد الغنى أن يعطينى ثلاثة أقفاص خيار :

ـ لن تأخذ أكثر من قفص · لولا العيش والملح لما أعطيتك « زر » خيار · أين الجنيهات الستة التى طرفك ؟

ـ تتعدل ·

ـ متى ؟ سمعت كلمة تتعدل مليون مرة ·

لماذا سكت السوق هـكذا ؟ حتى الذباب كف عن الطنين ؟ حينما أحاط بى أولادى وزوجتى ·· وضعت يدى على أذنى · نهضت واقفا · خرجت من الدار ساخطا ·

تلفت حولى · وقع بصرى على أبى العينين معلقا بندقيته فى كتفه · يتأبط عصاه وسبته الكبير :

ـ مرحبا يا عم أبو العينين ·

ـ تفضل يا شيخ الخفراء ·

أحس بالدم يشتعل فى عروقى · لابد أن كل واحد قد جهز له المعلوم · بعد دقائق سيملأ السبت « بلوشى » · لماذا لا يستنكر البائعون وقاحة أبى العينين ؟ كل يوم يطب ··· يلهف مكسبنا ؟ الحكاية تسير « بالتيلة » · رزق يوم بيوم ·· !

انطلقت من صدرى تنهيدة كالفحيح · طفا وجه الشيخ برعى :

ـ أيرضيك ما يفعله أبو العينين ·· خفير حضرة الضـابط الخصوصى ·· يا مولانا ؟ لماذا لا ينزل الله علينا لعنة كما أرسلها على عاد وثمود ؟

ـ اصبر على الظلم فلن يدوم ·

ارتفع صوت الخفير :

ـ ماهذا ياولد ·· ياغازى ؟ ألم تر ؟ ثمرة طماطم «شرك» ··!

ـ لقد وضعت فى السبت « وش » القفص يا شيخ الخفراء · وعلى العموم الأقفاص أمامك ·· خذ ما تريد ·

« اللى استحوا ماتوا » يقول لرجل أكبر منه سنا .. يا ولد ؟
بكل بجاحة يعترض . يقول : ثمرة « شرك » لو أخطأ مرة ومد يده
فى جيبه المنتفخ بالنقود ودفع قرشا .. ثمن رمزى .. !

« يا بيض اليمام يا عنب »

اقبل بوجهه المنبعج .. زر بطاطا مشوية :

ـ ولد يا صلاح .. هات كيلو خيار وثلاثة كيلو بلح و ..

برزت من عينيه صورة ابنى المريض . جدران مسكنى المهدم .
جلباب زوجتى الممزق . وجه عبد الغنى العابس :

ـ هل معك نقود ؟

ـ ماذا تقول ؟

ـ لقد سمعت سؤالى .

ـ أريد أن أسمع .

ـ اذا كان معك نقود .. سوف أبيع لك .

دس سبابته فى أذنه . حركها . ألم تخرق كلماتى أذنيه ؟
تحاولان أن تتذوق كلامي ؟ لماذا يحملق في وجهى بعينين مريبتين ؟..
قرد شرس .. ! :

ـ هات ياولد .. هل ستمزح معى ؟

ـ اننى لا أمزح .

ـ لا . لا . انك تمزح . هيا . هيا . ليس لدى وقت .

ـ لم أكن جادا مثل الآن .

ـ أتعرف مع من .. ؟

ـ اعرف أننى اتحدث مع وكيل مفوض حضرة الضابط .

تجمع أهل القرية ٠٠ غصون شيطانية ٠٠ أنبتتها الأرض في لمح البصر ؟ :

ـ ماذا هناك ٠٠ يا شيخ الخفراء ؟

ـ لا ٠ لا ٠ ليس هناك شيء ٠٠ المعلم صلاح يمزح معي ٠

لماذا يتكلف الابتسام ٠٠ ؟ يغلف كلامه بكل هذه النعومة ؟ أعرفه جيدا ٠ لسانه كالحرير ٠ لكنه يبتلع الشوك ٠٠ ! :

ـ قلت لك لن أعطيك شيئا الا اذا دفعت ثمنه مقدما ٠

حطت العيون المذعورة على زر البطاطا المنبعج ٠ كاد الدم ينط من وجه أبي العينين ٠ ارتعش شاربه الكثيف ٠ وقفت شعيراته البيض كالسكاكين ٠ انشقت شفتاه ٠ لماذا زمهما ؟ عدل عن الكلام ؟ لم يجد الكلمة التي يريد قولها ؟ ٠

هز رأسه ٠ ابتلع ريقه ٠٠ رفع عصاه ٠ تلقيتها بيدي ٠ نحيتها ٠٠ بغلظة ٠

« يابيض اليمام ياعنب »

أظلم وجه الخفير ٠ بدأ اضطرابه في تقلصات شفتيه ٠ ابتساماته المتتابعة ٠ في السؤال المتحجر في عينيه ٠ أحس بالحرج والغضب ؟ لم يعتد أن يتمرد عليه بائع في السوق ؟ خشي أن يتكرر هذا مع بقية البائعين ؟ يصبح التمرد عادة ٠٠ ! ليت هذا يحدث ٠٠ !

تكور الصمت ٠ التوتر ٠ الخوف فوق السوق ٠ تقابلت العيون ٠ ارتجفت الأجفان التي بلا رموش ٠ غطت الوجوه الشاحبة ظلال الحيرة ٠

شد أبو العينين قامته همهم بكلمات غير مفهومة ٠ لماذا سقطت الرءوس على الصدور ؟ كيف يرفعونها وقد نشأوا على الخوف المكبوت من صفعات ٠ لدغات عصا الخفير ؟ الكل يعمل له ألف

خشاب ؟! الى متى نشرب المر على يديه ؟ ألم يفكر أحدنا فى النظر الى نفسه ليرى من هو ؟ لماذا يحدث لنا كل ذلك ؟ ألا يكفى أن أبا العينين كل يوم يمر علينا «يشفط» ما تيسر ؟ لم يبق الا أن ينتزع اللقمة التى سنضعها فى أفواهنا ؟ ألم ير ؟ كيف أصبحت حياتنا أسوأ من حياة الكلاب ؟ الى متى نلوك الخوف ؟ نمضغ غضبنا ٠٠ !

تنحنح السعيد عبد الجليل :

ـ هل أصابك الجنون ٠٠ يامعلم صلاح ؟

ـ لا ٠٠ بل أنتم المجانين ٠

ـ لماذا ؟

ـ لأنكم فقدتم الشجاعة ٠ لماذا لا تقولون الحقيقة ؟

هتف الخفير :

ـ ستدفع ثمن طول لسانك ٠٠ يا صلاح ٠

ـ ليس قبل أن تدفع ثمن كل « زر » خيار ٠ كل بلحة ٠

لماذا ينظر الى من ركن عينيه ؟ ينذرنى ؟ ماذا سيفعل ؟ أعرف أنه ثقيل اليد ٠ طويل الذراع ٠٠ لكن كيف تجلدت عيناك لنظراته المتوهجة ؟ من أين لك كل هذا التحدى والاصرار ؟ منذ متى واتتك هذه الشجاعة ؟ لو أثمرت محاولتك ٠٠ !

زعق رشوان :

ـ حقك على يا شيخ الخفراء ٠٠ تعـــال معى ٠ سأعطيك كل ما تريد ٠ الخيار والبلح و ٠٠ تحت أمرك ٠

لماذا نفخ أبو العينين صدره ؟ رفع أنفه الى السماء ؟ شعر بالزهو وهو يسمع رشوان يعتذر له ؟ أراد أن يستعيد هيبته ٠٠ القديمة ٠٠ ! :

ـ أشكرك .. يا رشوان .. وسوف يعلم صلاح ابن بائع الليمون أن ما حدث اليوم .. لن يمر على خير .

تفجرت نار الغضب في صدرى :

ـ كان أبى فقيرا .. لكنه أشرف من أناس كثيرين .

لماذا اخضر وجهه واصفر ؟ أدرك ماذا أقصد بالناس الكثيرين ؟

« يا بيض اليمام يا عنب »

لمحت الشيخ برعى يسرع نحو المسجد :

ـ « وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون » .

لوى الخفير ظهره :

ـ على العموم .. سأخبر حضرة الضابط بما حدث اليوم .

ابتسمت .. هزتت المنشة :

ـ سلامات .. يا حضرة الضابط .

شهق غازى . قبض على ذراع أبى العينين :

ـ أرجوك .. انتظر يا شيخ الخفراء .

نظر نحوى .. أضاف :

ـ لقد كبرت الحكاية .. كانت بين أيدينا أطرافها .

وكزنى زاهر بكوعه . من بين أسنانه :

ـ اعتذر لشيخ الخفراء .. قبل رأسه .

أنا أقبل رأسه ؟ سكوتنا . مهادنته جعلت منه رجلا مرهوب الجانب كانْ معـدما . أصبح له بيت عال مبنى بالمسلح على سطحه ايريال .. من أين كل ذلك ؟ أليس من الشفط .. اللهف ؟

الأستاذ علام يقول لى :

ـ الدار التى تسكنها ·· الرطوبة والملح يرسمان على بقايا جدرانها الطينية خرائط لقارات العالم ·

لوح بدره بيده :

ـ يعنى عامل « فلحوس » ·· كلنا نقـدم لشـيخ الخفراء ما يريد بدون وجع دماغ ·

لو كنت فى السوق بمفردى ·· ؟ لكن زهران · السعيد · رشوان · حموده · بدره · غازى · و · نحن كثيرون · لماذا نسكت؟ الى متى يكمم الخوف أفواهنا ·· !

أمتـدت يد السعيد نحو قفص الخيـار · قبضت عليها ·· ازحتها بعنف :

ـ ماذا تفعل ؟ يمين طلاق ·· لن أعطى أبا العينين شيئا ·· حتى ولو دفع ثمنه مقدما ·

ـ طيب ·· طيب ستعرف من هو أبو العينين ·· يا صلاح

تساقطت الهمهات من الأفواه :

ـ رحت فى شربة ماء ·

قولكم هذا · سكوت الآخرين معناه الموافقة على ما يفعله الخفير · شجعه على الاستمرار فى بلطجيته · لو تصدى له أحدنا ؟ · رفض أن يقدم له شيئا « بلوشى » ؟ صرخ فى وجهـــه مطالبا بثمن ما يلهف ·· ؟ لما حدث ماحدث · عبد الغنى يقدم لنا الطماطم والخيار والبلح و ·· بدون نقود ؟ نأتى بها من البحر ·· ؟

ضغط بدره على ذراعى :

ـ ربنا يهديك ·· اخز الشيطان ·

جذبت ذراعى من قبضته بقوة :

ـ اسمع كلامى ·· سأعتذر لأبى العينين بدلا منك ·

هوت يدى على صدغ بدره ·· قفز حموده ·· حال بينى وبينه· لماذا منعنى عنه ؟ كانت فرصة « لأفش » غليلى ·· ! :

ـ هل هذا جزائى ؟

ـ لا دخل لك فى الموضوع ·

ـ أنت حر · ان شاء الله لن يعرف الذباب الأزرق مكانك ·· بعد ذلك ·

ارتطم بصرى بباب الأستاذ علام :

ـ أشجار الخوف لا تثمر الا الذل ·

« يا بيض اليمام يا عنب »

همس غازى فى اذنى :

ـ دع المركب تسير · لقمة العيش تقتضى أن يتنازل الانسان عن جانب من كرامته أحيانا ·· ليعيش ·

ـ هل نعمل عند أبى العينين ؟ سيعطينا أجرنا آخر النهار ؟

ـ يا أخى ·· لماذا لا نتجنب المشاكل · كلما فتحنا بابا ·· تقفله ؟

انحنى الخفير ·حمل السبت :

ـ وشنب أبى العينين ·· لن أنساها لك ·· يا صلاح يا ابن بائع الليمون ·

تراكمت الأيدى على ذراع السبت · انطلقت كلمات الرجاء · تطلب من الخفير الانتظار · تتوسل اليه أن ينسى ما حدث ؟ تمسح عيبتى فى ذقونهم ؟ ·

التقط أبو العينين ثمرة طماطم من جوف السبت · وضعها على عينيه :

ـ وحياة هذه النعمة لن أنسى هذا لصلاح • ولن أتنازل عن حقى •

ـ حقك ؟ متى دفعت الثمن •• !

رفع غازى حاجبيه هز رأسه مشفقا :

ـ مسكين •• صارت حيـاة المعلم صـلاح معلقة في خيط رفيع •

مط رشوان شفتيه :

ـ لا يستطيع أحد أن يخمن ماذا سيحدث له ؟

لوح حموده بيديه • زعق :

ـ ماذا سيحدث ؟ ستنطبق السـماء على الأرض ؟ ستقوم القيامة •• !

تخلص وجه الشمس من جوف سحابة ترابية • سقط ظل أبى العينين أمامى •• فأر صغير •

رفع زاهر ذراعيه بحذاء كتفيه :

ـ لقد نصحتك • لم تسمع الى قولى • لن يقف أحد بجانبك •

ـ أعرف أننى سأكون وحيدا •

لماذا يحدق حموده فى وجهى بنظرة عميقـة هكذا ؟ ما سر الابتسامة التى تتسع على شفتيه ؟ يستنكر قولى ؟

تقدم • التمت نحو غازى • بدرة • أبى العينين • رشوان • زاهر • ملأت الابتسامة وجه حموده •• مد يديه نحوى •• شد على يدى باعزاز •

الثعبان ...

ماء الترعة يجرى هادئا . أفسحت الخطو . أهل القرية قادمون مع مواشيهم من الحقول . ماذا سيقول زوجى عندما يعود ولا يجدنى قد أعددت طعام العشـــاء ؟ أؤخبره أننى كنت أنقى القمح وأكسر الدريس و .. وكنت على وشك الغرق اليوم فى الترعة ؟

جذبت سقاطة الباب . فتح على الفور . كشفت غطاء الزير الخشبى . أمالت رأسها بالبلاص . صعدت فوق السطح . ألقت بحزمتين من الحطب وقرصين « جلة » . جلست أمام الكانون . قذفت ببعض أعواد الحطب فى جوفه . تطاولت ألسنة اللهب . وقع بصرها على الحمامة البيضاء . ما زال صدرها ملوثا بالدم ؟

فى منتصف الليل ترامى الى أذنى صوت غريب فى الصالة . سنحبت جسدى من بين الأجســـاد المتراصة على « البرش » رأيت ثعبانا بلون التراب يفح فى وجه الحمامة البيضاء . راحت تضربه بجناحيها بعنف . تغرس منقارها فى جلده المطاطى . كانت تدافع فى استماته عن فرخيها الصغيرين . هرعت الى زوجى . التقط عصا

طويلة . أمسك ابنى الأصغر بالفرقلة . ولى الثعبان هاربا . ملأ الاشفاق عيوننا عندما وجدنا جروحا عميقة فى صدر الحمامة . كسى الاعجاب وجوهنا حينما اكتشفنا أن فرخيها لم يصبهما أذى .

عادت تدس فى ثغر الكانون أعواد الحطب . ترى أين اختفى الثعبان ؟ غادر الدار ؟ لو سقط فى أيدينا بالأمس .. ؟

صحن الدار واسع لا يحده عن الجرن الا أشجار التوت . منذ شهرين تسلل ثعبان الى حظيرة الدجاج . كان لونه ترابيا . ألا يكون هو نفس الثعبان ؟ أنه هو . أنا أعرفه . عيناه اللامعتان كعيون الصراصير . وذيله معقوف .. منقار حدأة عجوز .. لدغ الدجاجة الراقدة على بيضها . ماتت . اختنقت الكتاكيت فى جوف البيض .

فار الحساء . تلوى الغيظ فى صدرها . مدت يدها الى القلة الراقدة بجوار الكانون . أين غطاؤها ؟ كيف نسيتها مكشوفة ؟ وسدتها فخذها . بسطت يدها اليسرى لتستقبل حبات الملح .

سقطت من بين شفتيها المرتعشتين صرخة حادة عندما رأت ثعبانا بلون التراب يتدلى من فوهة القلة . أجفلت يدها اليمنى لتخلص يدها اليسرى من أسر الثعبان . انتفضت . احتواها خوف مجنون عندما التصقت اليدان . أصبح الثعبان قيدا ؟

لماذا لا تستنجد بصوتها « الحيانى » ؟ ما هذا الذى يصك أذنى ؟ صراخ ! من ؟ صراخى أنا ؟ أأستطيع ذلك ؟ يجب ألا تنتفض أطرافى أو يرتجف قلبى والا .. ؟

يوما ما قال أبى :

ـ اذا أبديت خوفا للثعبان لدغك .

هل أبدى أولادى الثلاثة خوفا ؟ لدغهم الثعبان من وراء ظهورهم ..؟

جاءها صوت بومة · شعرت بوخز فى معصميها · ما هذا الذى يوسل عبر لحمها رعشة ؟

قرأت الفاتحة مرة والصمدية مرات ·· الثعبان يشـــدد من قيده حول يديها · صوتها لا يغادر حلقها · جثمت على صـــدرها صخرة ضخمة ؟ اختنقت ؟ لو أحس الثعبان بالخوف يسرى تحت جلدها لن يتردد عن لدغها ·

يلدغنى ؟ تتورم يدى ؟ تصبح فى زرقة النيلة ؟ أرتعش ؟ أموت !

انتفض قلبهـــا بين ضلوعها ·· عصفور مكسور الجناح · قفزت الى ذهنها صورة ابنها الأوسط منذ ست سنوات جاء به أهل القرية محمولا على حمار · كان مدلى الرأس والذراعين ·· شجرة أطاح بها اعصار ·· تفرست وجهه الذى بلون الكبدة · نفس الزرقة التى كانت تجتاح وجهى أخويه :

ـ لدغه الثعبان ·· أيضا ؟

هوت الرءوس على الصدور ·· أعلام منكسة في يوم حزين ·· تمتمت الشفاة بالايجاب ·

سقط بصرها على يديها المقيدتين · الى متى ستظل واقفـــة ، مصلوبة اليدين كالتمثال ؟ كانت تنقصها هذه المصيبة ؟ ألم تشبع وارتوت من حنظل الأيام ؟

صر الباب   صوت زوجها يتدحرج عبر الصاله :

ـ اين أنت يا ·· ؟

تهشمت بقية كلماته العاتبة بين أسنانه · وقف مشدوها · لا يصدق عينيه ؟ :

ـ لا تحركى يديك ·

كلماته خافتة الا أنهـــا صلبة · عميقة الغور · تدفقت من

أعماقه ؟ سكبت شيئا من الطمأنينة فى صدرها الواجف !

تلفت الزوج حوله . شعرت بشيء كالموسى يحز يديها . الثعبان يحذرنى من اتخاذ أية خطوة ضده ؟ لماذا لا أصرخ ؟ الصراخ قد يخيفه . لو أبديت خوفى ربما لدغنى . اننى فى حاجة الى مجهود عنيف لاخفاء رعبى .

فتح الثعبان فمه . جوفه أخضر . خلف أنيابه الخضراء كيس السم ! تأرجحت أمام عينيها حبال الطحالب التى تداعبها الأمواج عند الموردة . كدت أغرق اليوم عندما وطأت قدمى احدى جدائل الطحالب لولا أن تشبثت بحجر كبير .

تحسس فم الثعبان ظهر يدها . سرى الذعر فى نخاع عظامها . ماذا يبغى ؟ يتخير المكان الذى .. ؟ يبحث عن عرق يغرس فيه أنيـابه ؟

الخوف يغلف كل شيء . يتحرك مع كل نسمة . يملأ صدرها . تطلعت بعينيها المرتجفتين نحو الأفق . صار بلون الدم ؟ يسكب فيه قرص الشمس جراحه ؟

تسارعت ضربات قلبها .. هون فى يد متعجلة . الأشياء تهتز أمام بصرها . تذوب . تتلاشى .. أصابها دوار ؟

أقبل زوجها مع أهـل القرية . ملأوا صحن الدار . زادت العيـون اتساعا . صارت كلمـاتهم خطوطا حزينة باهتة ! زحفت عيناها على أذرع أشجار التوت التى عراها الخريف من ردائها .

أمسك الخفير طرف جلبابه الأزرق . هوى عليها بخيزرانته .. زعق :

ـ وسع ياجدع انت وهو . ياخلق هذه ليست سـينما . انها مصيبة .

كل عضلة فى وجهها تتوسل الى أهل القرية أن يفعلوا شيئا من أجلها . عينا زوجها تهمسان :

« أنا معك .. بجوارك » .

« ما فائدة وجودك بجانبى والثعبان يقيد يدى ؟ » .

فى مقلتيها ظلال مقاومة لرغبة متشنجة فى البكاء . استعذب الثعبان أن يرانى أتعذب ؟ أكاد أموت رعبا . راح فقيه المسجد يغمرها بكلمات التشجيع ويوصيها بالصبر .

أصبر ؟ أليس من المضحك أن نرى انسانا مشرفا على الغرق ونتوجع له ونحن وقوف على الشاطىء بلا حراك دون أن نلقى اليه حبلا أو طوقا للنجاة !

تلفت الثعبان حوله . لماذا تبدو نظراته قلقة ؟ دب الخوف فى أوصاله عندما رأى أهل القرية يحيطون به ؟ أحس بالندم لأنه لم يلدغنى قبل مجيئهم ؟

ذات يوم قالت أمى :

ـ الثعبان جبان . عندما يحس بالخطر يحاصره يولى هاربا .

يهرب وبين أنيابه الفريسة ؟ كيف يترك يدى اللتين يقيدهما بجسده الأملس الحديدى ؟

يدرك أن أهل القرية لن ينالوا منه مأربا ! الخبيث نسج خطته بمهارة ؟

تناثرت المشورات :

ـ لماذا لا نرسل الى «ج» ؟

من صاحب هذا الاقتراح ؟ لا أعرف من أين جاء صوته ؟ كيف صك أذنى من بين الضجيج ؟

تسلقت العيون الرءوس محـــاولة أن تتعرف على المتحدث . « ج » « مخاوى » يسخر الجن . ينقل الحائط عن الحـــائط . يجعل قالبى الطوب يتشاجران .

انفرج الجبل البشرى · تقدم « ج » بوجه الذى يشبه الجزرة · واجهته بنظرات صامتة حبلى بالاستغاثة · ابتسم مطمئنا · هرش قفـــاه :

ــ أريد كيلتين أرز وقفص مانجو ·

ــ المهم أن تخلصنا من هذا الثعبان ·

تعلقت الأبصار بشفتى « ج » رفع يديه · تطلع الى السماء · الغروب بلون الثعبـــان ، بسط « ج » ورقة جريدة أمـام عينيه الزرقاوين ·

منذ أعوام وجدت ورقة صحيفة بين كتب ابنى · وقع بصرى على صورة فتاة جميلة ترتدى ملابس غريبة رائعة · قدمتها اليه :

ــ هذه حتشبسوت · ملكة من ملوك مصر القديمة · انهـا تشبهك تماما ·

كادت تسقط من فمها صرخة · لدغها الثعبان ؟ عضـلاته الحديدية المتشنجة ستمزق معصميها ؟

أأغضبته همهمات « ج » ؟ لو اســـتمر الأمر على هذا الحال سأصاب بانهيار عصبى :

ــ يبدو أن الثعبان جائع · احضروا له بيضا ··

بيض ؟ طازج ؟ مسلوق ! مشوى ؟

قدم الزوج الى « ج » ثلاث بيضات طازجة فوق مطرحة · هشم البيض · سال الســائل الأصفر على المطرحة · مدها نحـو الثعبان · اشرأب عنقه · لماذا يقلب عينيه هكذا ؟ يستطلع الأمر ؟

مد لسانه الرفيع · تذوقه · رشف احدى البيضات ·

نبت الأمل فى صدرها · سرت نسائم الارتياح على الوجــوه الشاحبة · ابتسم « ج » فرك يديه · اندفعت نافورة مصحوبة بنجيج

من فم الثعبان . غطى السائل الأصفر وجه « ج » . تراجع فى رعب أخرس . اتقدت عيناه بالغضب والخجل . تدفقت الشهقات من أفواه أهل القرية . تعلقت بأهدابها حبات من الدمع . كل شيء حولها يقول :

« لا فائدة » .

هتف فقيه المسجد :

ـ كيف يستجيب الله لدجال خرب الذمة يشرب الخمر ؟ من يدرينا .. ؟ ربما اتفق هذا الضلالى مع الثعبان على ألا يترك يديها ؟

ابتلع « ج » اهانة فقيه المسجد . أسرع نحو الزير ليغسل وجهه .

عاد الثعبان يتشمم ظهر يدها . أنفاسه تحرق دماءها . لماذا كان يهادنك طوال ذلك الوقت ؟ كان يدرك أنك لن تبقى طويلا ؟ يتلذذ بخوفى وعذابى ؟ يرضى شيطانا خبيثا يرقد فى أعماقه ؟ يريد أن أنهار وأصبح فريسة مستسلمة ثم ينال ما يريده ؟

الأسبوع الماضى سقط فأر فى المصيدة . راح ابنى الأصغر يلهو به . كان يتشفى وهو يراه بين جنبات سجنه فى ضيق وحيرة . يوخزه بمسمار طويل مدبب . هتف والده :

ـ اقتله .

ـ أريد أن ألهو به قبل أن ..

ـ قد يغافلك ويفلت من المصيدة .

ـ انها محكمة . أسلاكها قوية .

تساقطت غبشة المساء . تراقصت ذبالات المصابيح البترولية . الى متى سألوك خوفى فى صمت ؟ أصبح جسدى غير قادر على حملى . أى ذنب ارتكبته حتى تحكم على يا الهى بهذا ؟ أستغفرك سبحانك .

صاح أحد رجال القرية :

ـ ألم تهتدوا الى وسيلة ؟

السؤال يتردد فى الحاح · الكلمات تدور بين جدران رأسها · تأرجحت المرئيات أمام عينيها · حط الصمت ·

جرح السكون صوت غليظ ·· صوت ذكر الضفدع · تقدم عرضحالجى القرية :

ـ اننا نركض فوق حبل المستحيل ·

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لماذا نسير فى طريق مجدب ؟

ـ أخبرنا ما العمل ؟

ـ ما دام لا فائدة · يبقى ضربوا الأعور على عينه ···

ـ ماذا تقصد ؟

ـ نقطع يديها وننهال على الثعبان بالفئوس والعصى ·

تقطعون أيدى ؟ ما هذا الاقتراح المزعج ؟ أعيش بلا يدين ؟

لم تستطع اخفاء الشحوب الذى اجتاح وجهها · طاف بصرها اللاهث على عيون أهل القرية ترقب نظراتهم المشتتة ·

ارتفع صوت قبانى القرية مستنكرا :

ـ لقد فاق جهلك من حرق اللحاف من أجل قتل برغوث ·

ـ أن تدعى الجهل خير من أن تدعى العلم ·

ـ لا داعى للثرثرة والأفكار التى لا ترتفع عن موطىء قدميك· أتظن أن الحكاية عريظة أو شكوى ؟

ـ لماذا تتحدث من وراء ظهور الرجال · تقدم وأخبرنا يا « أبو العريف » كيف تخلصنا من هذه الورطة ؟

تدخل فقيه المسجد · رفع يديه :

ـ يا جماعة صلوا على النبى · فكروا · عسى الله أن يهدينا الى حل سديد ·

انسكب الصمت من جديد · ملأ صحن الدار · حفر فى النفس ألف دوامة بلا قرار · انشق طريق فى منتصف الدائرة · تقدمت « الماشطة » :

ـ الثعابين تحب الطرب والموسيقى · لماذا لا نرسل الى الطبال يحضر دفه ومزماره ؟

دف ومزمار ؟ أتظن أننا فى عرس ؟

استيقظت التعليقات · ماتت عند أذنيها · ما هذا الصخب الذى يهدر فى جمجمتها ؟ يتدفق من أعماقها ! حقن الثعبان سمومه فى دمائها ؟ طغت أعراض الحمى ؟ لا · لا · ما زال الثعبان «يكلبش» يديها · كل ما تخشاه أن يتسلل من كم جلبابها الى صدرها · لو فعل ·· !

خنقت رعشة أوشكت أن تحتوى جسدها · سينهش ثديى الأيمن أم الأيسر ؟ يريد أن يبث سمومه فى النبع الرقراق الذى يروى أبنائى ؟ ألا يكفى أنه قتل ثلاثة منهم ؟

لماذا لم يأت الطبال ؟ الوقت يمر بطيئا ثقيلا ·· ترس ضخم يفتت أعصابها ·

أقبل الطبال · فى يده دف كبير · على اطاره دوائر حمراء بلون الدم · بجانبه ابنه يمسك مزمارا « مدندش » بسلك نحاسى ·

نقرت أصابع الطبال على الدف نقرات بطيئة منتظمة · امتزج بها صوت المزمار الشجى ·

تطاول عنق الثعبان · هز رأسه · أصابه الطرب ؟

انتعش الأمل فى العيون الخابية · زغردت « الماشطة » · سينجح اقتراحها ؟

اندلح العرق على وجه الطبال وابنه · توقفت ألحانهما · حملقا فى الوجوه المستفسرة · انفرجت شفاههما قليلا · همست بغرابة وشراسة هذا الثعبان · أعربا عن عجزهما ··

تململ أهل القرية فى وقفتهم · وجوههم تقطر ألما · اشفاقا · يأسا · ضاقت بهم السبل ؟ لماذا يرمقنى الثعبان هكذا ؟ يسخر من الأمل الوليد الذى نبت بين ضلوعى منذ قليل ؟ :

ـ لم يعد هناك منفذ ؟ ·

لماذا توقف سؤالى داخل دائرة الصمت حائرا ؟ أصبح السكوت جوابا ؟ يخشى أهل القرية أن يعلنوا الحقيقة ؟ أحس بأشياء تنهار داخلى · الحبل الغليظ قبل أن ينقطع تبقى منه شعيرات تمسك طرفيه · نرى هذه اللحظة المذعورة التى ينتهى عندها كل شىء ؟

هرعت عيناها نحو الكانون · الخفير يلقى فى جوفه أعواد الحطب وقطع « الجلة » · تتصاعد من بين شفتيه حلقات الدخان · تلوت معها أفكارها المضطربة المختلطة ·

الليل يزحف حثيثا · لو زحف الثعبان الى عنقى ؟ لا أملك له دفعا · ليس أمامى الا أن أثبت للنصير فى شجاعة وصبر ·· !

شعرت بخيوط العرق الثلجى تزحف على ظهرها · أحس الثعبان ببوادر خوفى ؟ تحققت له الخطوة الأولى التى كان ينتظرها··؟

هتف الخفير :

ـ تعالى هنا ·

ماذا يريد ؟ سيغرس بصبوص النار فى عين الثعبان ؟ :

ـ ضعى يديك فى جوف الكانون بسرعة ·

أضـــع يدى فى الـكانون ؟ كيف ·· ؟ ألا يعــرف ماذا سيصيبهما ؟ لو فشلت المحاولة سيزداد الثعبان هياجا وشراسة ! :

ـ قلت لك ·

على الوجوه الترابية ابتسامات مشجعة · فى مقلتى الزوج ·· بريق ينطق بمعان جديدة ·

تراقصت أمام عينيها صورة أبيها :

ـ ان لك عزيمة قوية لا يملكها أقوى الرجال ·

تحجرت قسمات وجهها الأبنوسى · دفعت يديها فى جوف الكانون المتوهج ·· سهم يعرف هدفه ·· فح الثعبان كالأنين · كالذعر · ! هوى على كتف الكانون · انتفض ·· كرة فى يد طفل عابث ·· انطلق نحو أشجار التوت · لاحقته صيحات وعصى أهل القــرية ·

أغنية قبل الموت

١

حبت عينـاه فوق شواشى الذرة · أشـعة الشمس الغاربة تستلقى فوقها · على وقع حـوافر الحمارة · ارتعـاش العجلتين الخشبيتين · أخذ يغنى ·

تقاصرت خطوات الحمارة · قدما زوجتى كانتا تزحفان عندما ذهبنا الى سوق الأربعاء :

ـ تمهل يا خليل · أريد أن أجلس تحت ظل احدى الأشجار حتى أستطيع أن ألتقط أنفاسى ·

اقترب من الكوبرى · أين الرجال الذين يجلسون على جانبيه ؟ لماذا خلت الشوارع من المارة ؟ لماذا أغلقت أبواب الدور ؟ هجرها أهلها ؟ كانت القرية لا تغلق أبوابها الا فى منتصف الليل · أين بقرة علوانى الهزيلة التى تقف هنا منذ أن اشتراها ؟ :

ـ ما هذه البقرة يا علوانى ·· ؟ ألم تجد فى السوق غيرها ؟

ـ على قدر نقودنا ·· اسمها بقرة ،

طافت عيناه بأسطح الدور . ارتطمتا بأكوام الحطب والقش. أقراص الجلة . أين ذهبت العصافير ؟ لماذا لم نسمع زقزقتها ؟ أين اختفت ؟ ما سر هذا الهدوء الخانق ؟ أصبحت القرية مقبرة ؟ لماذا انقبض قلبى ؟ بما أعلل هذا الشعور الغامض الذى استولى عليه فجأة ؟ أأنتظر كارثة ؟ لماذا أحمل نفسى مزيجا من القلق والخوف ؟ لو عرفت ... !

شعاع الشمس يحاول أن يخترق الغيوم الداكنة . وجه القرية تكسوه رعشة الكآبة . تخيم على صدرها . شىء فى أعماقى يحدثنى بأن أشياء خطيرة قد وقعت . ما الذى حدث .. !

راحت الحمارة تركض . لماذا أسرعت الخطو دون أن أهتف بها محرضا ؟ حتى الحيوانات تعرف ؟ تشم رائحة الخوف ؟ ابراهيم افندى يقول :

— الفيران والثعابين تتنبأ بحدوث الزلازل قبل وقوعها بأيام .

مد بصره فى الشارع ، لماذا يبدو بلا نهاية ؟ أين الرجال الذين يجلسون على المصاطب يتسامرون ؟ الأطفال الذين يملأون الأجران يلعبون الكرة .. !

انهالت العصا على ظهر حمارته . جرحت شخشخة العجلتين الخشبيتين الصمت الراقد .

هبط المساء . تاهت معالم القرية . ترجل عربته . دق الباب بقبضته . لماذا لم يأت اليك رد ؟ غادرت زوجتك وأولادك الدار ؟ أين ذهبوا ؟ كيف تخرج زوجتك الآن دون أن .. ؟ لم أتذكر يوما أن عدت من الغيظ ووجدتها خارج الدار .. أجدها جالسة أمام الكانون .. أو تنظف حجرة الفرن والمندرة .. قبل أن أطرق الباب تسرع اليه :

— من الذى أخبرك اننى .. ؟

ـ سمعت شخشخة العربة ٠

توقفت يده عن الطرق ٠ أرهف سمعه ٠ نظر وراءه ٠ الظلام يبتلع كل شيء ٠ اجتاحه احساس بالترقب والخوف ٠ العصا تدق الباب دقات متعجلة :

ـ يا وجيدة ٠

هزت الحمارة رقبتها ٠ ثقبت الأجراس المعلقة حولها الصمت ٠ تهزأ من محاولتي ٠٠ ؟ تطالبني بمعاودة الطرق ؟ ضاع رد زوجتي في رنين الأجراس ؟ :

ـ يا ولد ٠٠ يا جمعة ٠

تسلل الى أذنيه صرير البـاب الوسـطانى ٠ صوت زوجته مستفسرا :

ـ مـن ٠٠ ؟

لماذا جاء صوتها خافتا مرتعشا ؟ :

ـ أنا ٠٠ أنا خليل ٠

أطل وجهها من فرجة الباب :

ـ لماذا لم ٠٠ ؟

ـ أدخل بسرعة ٠

ـ ماذا هناك ؟ ألم تسمعوا طرقاتي ٠٠ ؟ مرة أدق البـاب بيدى وأخرى بعصاى ٠٠ نائمون على آذانكم ٠٠ ؟

جذبته من ذراعه ٠٠ أغلقت الباب ٠ راحت يداها المرتعشتان تتحسسان كتفيه ٠ فى صوت مرتجف :

ـ الحمد لله على سلامتك ٠ كنت خائفة ٠٠

اقبل ابنه جمعة :

ـ أين العربة .. ؟

امتدت يد زوجته نحو الباب . كيف نسيت أمر العربة ؟ ما سر لهفة زوجتك .. ؟ لماذا كانت خائفة .. !

راحت تدفع العربة دفعا نحو الباب . أغلقته بسرعة . أسندت ظهرها اليه . تنهدت . فاضت عيناه بالحيرة :

ـ ماذا حدث .. ؟

ـ لابد أنك جائع .

ـ أريد أن أعرف سبب ...

ـ ستغسل يديك أولا ... ؟

ـ اننى ...

ـ هل أحضر لك لقمة .. ؟

لماذا تتهرب من أسئلتى ؟ لماذا أسرعت نحو صحن الدار ؟

شيء كالرصاص يستقر . يضغط على صدرى .

خفقت جفونه . لم تبعد ارتعاشات عينيك الثقل عن قلبك ؟ لم تبدد الغموض المخيم على .. !

الظلام يتسلل الى كل شيء . فى الظلام العميق . الصمت اللزج تتوه معالم الأشياء . تتضخم الهواجس .

زحفت يده نحو الطاقة الكائنة خلف باب المنـدرة . التقط علبة من الصفيح . قذف بقطعة سكر فى فمه .

عادت زوجته تحمل اللمبة الصاروخ . أشعلت اللمبة نمرة خمسة . لماذا لا تتحدث ؟ أريد كلمة . جوابا ينعش الصدر . يريح القلب المكدود .

فرشت قطع الحصير فى الصالة · وضعت أمامه الطبلية · اسرعت نحو الكانون · قبض على يدها :

ـ لن أضع شيئا فى فمى حتى أعرف ··

لماذا تقلب حبات عقدها الكهرمانى الأصفر ؟ زحف الشحوب الى وجهه :

ـ ماذا أقول ؟

ـ صمتك يزيد قلقى ·

أقبل الأطفال · رسم المصباح البترولى أشباحا فوق جدران الصالة ·

احتضنت أبناءها ·· همست :

ـ لا داعى للكلام أمام الأطفال ·

زحف الخوف الى قلبه ·· موجة برد مميت ·· خنق ارتعاشة فى قبضته · عرق جسده بعرق لزج وتوجسات بخطر قادم · لم يعد لديه مزيد من التحمل والصبر · زفر · طبطبت على ظهور اطفالها · طلبت منهم احضار القلة من تحت الزير · اندفعوا فى سباق نحو الباب الوسطانى ·

تنهد :

ـ لقد ذهب الأولاد ·· أخبرينى ·· ماذا حدث ؟

قلبت كفيها :

ـ لا أعرف من أين أبدأ حديثى ·

استفلحت حيرته :

ـ لم أعد أطيق صبرا ·

ـ منذ ساعتين انقلبت احدى سيارات السيرك الضخمة على الطريق الزراعى المجاور للنهر ·

ملأت الضجة الصالة . كل طفل يعلن أنه أحضر القلة . هب واقفا انتزعها من الأيدى الصغيرة . وضعها فوق الطبلية . دفع الأولاد نحو حجرة الفرن . أسند ظهره الى الباب المغلق :

ــ ثم ماذا حدث بعد أن انقلبت السيارة ... ؟

ــ هرب منها أحد الضباع . اندفع نحو الكوبرى المؤدى الى قريتنا . شاهده لطفى أبو القاسم واقفا على شاطىء النهر . أيد برهام كلامه .

الرؤيا ترتعش فى داخله . تهتز . يدب النمل فى عروقه .



ــ ألم تأكل ؟

آكل ؟ اللقمة التى أضعها فى فمى ستكون سما حارا .

نظر الى اللمبة نمرة خمسة . صارت عشرات من المصابيح . كل مصباح يطل منه وجه ضبع . يهاجم أهـل القرية . يفرون أمامه .. فيران جابهها قط .. أخفى عينيه بيديه . وضعت زوجته الطعام على الطبلية . تسللت الى أنفه أنفاس الطبيخ . لماذا تبدو رائحة الملوخية غريبة ؟ كنت قبل أن أجلس الى الطعام . بخار المرق يقتحم خياشيمى فى اغراء شديد . أترك أنفى يستروح عبير الحساء قدمت اليه فخذ دجاجة . نادت أطفالها . راحت أسنانه تلوك قطعة اللحم . لم يعد للطعام مذاق ؟ حتى قطعة السكر التى استحلبها لسانى منذ قليل كان لها مذاق الصبار .. !!

عينا زوجته تحصران وجهه . اللقمة فى فمه قطعة كاوتشوك . يحرك فكيه فى تثاقل . كأنما يحمل مقطفا مملوءا بالوحل . لم يعد لى رغبة فى الطعام ؟ لم أذق شيئا منذ أن غادرت الدار فى الصباح . أنا على يقين أن زوجتى كذلك ، كل منـا يمضغ مجاراة للآخر ؟ تجاملنى حتى .. !

رفع القلة الى شفتيه · يتدفق منها علقم ؟ الحنظل يطفح من أعماقى ·· ؟

وضع القلة بجواره · الى متى تتقابل عيناك بعينى زوجتك دون أن ينطق أحدكما بكلمة ·· ؟ الى متى ستظل صامتا ؟ ماذا تقول ؟ كلمات على مهل تملأ بها هذا الفراغ الذى هبط على الدار كالترعة التى جف ماؤها ·· !

نهضت الزوجة · سارت نحو الباب الخارجى · حاولت زحزحة الحجر الضخم الراقد بجوار الحائط · لم تستطع · ماذا يدور برأسها ؟ تريد أن تضع الحجر خلف الباب ؟

نظرت نحوه · تطلب مني النهوض لمساعدتها ؟ آلامى أثقل من هذا الحجر · سنغلق أبواب دورنا على أنفسنا كالكتاكيت ؟ فقدت القرية هدوءها وأمنها فجأة بلا مقدمات ·· !

أخذ يتجول فى الدار · كل واحد فى القرية ينام · يغلق الباب بالضبة والمفتاح · يظن أن الضبع لن يصل اليه ·· ؟

حرك يديه أمام وجهه · يطرد ذبابا وهميا ؟ يحرك الهواء الراكد أمامه ؟ تحول هواء القرية الى دخان خانق ؟

تذكر صادق · دائما يتأخر فى الغيط · يحرس جميزته · يختن ثمارها · لا يعود الا مع أذان العشاء · رأى بعين الخيال على صفحة الخوف كيف وثب الضبع · استقرت أنيابه فى صدر صادق فارتمى الى الوراء · تفجر الدم ·

أحس بزوجته تقف بجانبه تنظر اليه بوجه شاحب وعينين تملؤهما الحيرة والخوف · أين حمرة الورد التى كانت تسرى فى وجهك ؟ عندما هممت بمغادرة الدار ·· كانت عيناك تشعان بريقا وسعادة · هاهما الآن كومتا رماد ·· !

ارتفع صياح الأطفال ·· ليتنى عدت طفلا · ألعب معهم ·

لا أحمل مسئولية ولا هما ولا .. فى الصباح أثناء ذهابى الى الحقل كانت الفرحة على وجه كل طفل فى عينى . فى ضحكة كل رجل . فى بسمة كل فتاة وامرأة . انقلب كل هذا فى لحظات الى قلق . حزن . رعب .. ؟

سار نحو حجرة الفرن . احتوى أولاده فى حضنه . أسئلة تطوف . تتصادم . تملأ نفسى . كيف حدث ذلك ؟ لماذا اختار الضبع قريتنا بالذات ؟ لماذا لم يذهب الى الكفر ؟ كان على بعد خطوات من الطريق الزراعى .. !

تنهد . ماذا سنفعل ؟ ماذا أقول لأولادى عندما يجدون الباب مغلقا بالضبة والمفتاح ؟ . يرقد خلفه الحجر الكبير ؟ الى متى سنظل على هذا الحال نعيش فى سجن الخوف .. ؟

عرق جسده . بللته المرارة والحيرة ؟ راح يدور على الحصير ... كالطنبور .

٣

جلست أمام الكانون واضعة يدها على خدها . لماذا لا تتحدث ؟ زهدت فى الكلام ؟ فى عينيها ايحاءات مليئة بكل المعانى . تعلم ما يشقيك .. ؟ ما يكيدنى أننى مشلول الفكر والحركة .. ماذا أفعل بمفردى ؟ يد واحدة لا تصفق . أليس هناك رجال فى القرية ؟ لو قال كل واحد هذا القول ... سنموت فى جحورنا .

رفع غطاء الزير الخشبى . اتسعت عيناه . دس رأسه فى جوفه . حفنة من الماء تلمع فى قاعه . منذ أن اقتحم الضبع قريتنا . ملأ الخوف آبار القلوب . جف الماء من الدور .. ! لو ملأت زوجتى الزير والبلاص أول أمس ؟ كل يوم كانت تذهب الى النهر .. لماذا لم .. ؟ من أين لها أن تعرف أن الضبع .. ؟

حمل الاناء الفخارى القابع تحت الزير . اغترف بكفيه الماء .

حط بصره على ابنه الأوسط · منذ قليل صعد السلم ليلقى الحطب وقرصين جلة · أعلن أن جيراننا يبنون جدران الحظائر المنخفضة · لماذا يحصنون دورهم الآن بالذات ؟ قرروا عدم مبارحتها ·· ؟

تسللت يده الى جيب الصديرى · تذكر أن علبة الصفيح خالية من المعسل · مد يده فى الطاقة ·· مجمع الشاى خال ·· آخر قطعة سكر قذفت بها فى فمى منذ يومين ·· مزاجى خرمان · أريد أن أرص كرسى معسل · أشرب كوب شاى · لابد أن السيد رزق قد أغلق دكانه :

ـ الى متى سنظل على هذا الحال ؟

ماذا أقول لزوجتى ؟ ألم أتلق هذا السؤال مرارا ؟ كان جوابك صمتا · أصبح قولها لا يعنى غير كلمات تردد ؟ لا تنتظر جـديدا فى الجواب ؟ :

ـ وضعت أمام الحمارة « غمر » ذرة خضراء ؟

ـ نعـم ·

أحس بالسعادة كلما ابتعد حديثها عن الضبع و ·· لكن الى متى سيظل هذا الوضع معلقا هكذا ؟ أسبوعا ؟ شهرا ؟ نظل سجناء فى دورنا ·· ! نموت عطشا ·· ؟ لاتروى النباتات ؟ يذبل الزرع ؟ تجف كيزان الذرة ·· !

احتضن رأسه بين راحتيه · لماذا يدق هكذا ؟ أنا محتاج الى صدر أريح عليه رأسى · ذراعين تعتصران آلامى وعذابى · عينين أستمد منهما أملا و ·· :

ـ سنضع أيدينا على خدودنا ·· ؟ لابد من أن نفعل شيئا ·

سنعود مرة أخرى الى الكلام عن الضبع ؟ ماذا أفعل ؟ وكل واحد أغلق عليه باب داره · وضع نفسه داخل قمقم · لم يعد أحد يرى جاره · لو كان لدى كل منا تليفون ·· ! :

ـ استسلمنا لليأس ؟

متى تكف زوجتك عن أسئلتها ؟ الم تر ما أصبحت عليه من حزن وكآبة ؟

وقف أولاده الثلاثة أمامه :

ـ نريد أن نخرج لنلعب فى الجرن . لماذا لم يعد الأطفال يدقون بابنا ؟

أؤخبرهم بحكاية الضبع ؟ . أن أهل القرية يلزمون دورهم خوفا منه ؟

ولكن ألست رجلا من أهل القرية ؟ ماذا تقول لو سألك أحد أولادك .

« هل تخاف الضبع ؟ » .

« لا .. » .

« لماذا لا تغادر الدار ؟ » .

لماذا أفتح على نفسى بابا لا أستطيع اغلاقه ؟ كيف أكذب على أولادى وأنا أطالبهم بالصدق .. ؟

نهقت الحمارة . أحسست بالحنين الى الانطلاق من الحظيرة ؟ منذ أن ولدت فيها لم تحبس يوما .

عيون الأطفال الضيقة يطل منها ألف سؤال . جاءهم صوت أمهم . التف الجميع حول الطبلية .. فى صمت .

٤

تسللت حركة من فوق السطح . تلاحقت نظرات زوجته هلعا. حبس أنفاسه . عندما يهبط الليل يدهم الصدر شىء غامض مخيف. ينبت فى الأعماق احساس بالقلق والرعب .

جذبت الزوجة الغطاء على جسدها . ضمت أولادها الى صدرها :

ـ صرنا نلتحف الخوف والظلام ؟ كيف يتسنى لقريتنا التى عاشت سيدة كريمة آلاف السنين أن يعشش عليها هذا الكابوس ٠٠؟

كلمات ابراهيم أفندى تضيء فى خيالى :

ـ لا يمطر الغيوم الا البرق ٠

لو كان بيننا الآن ٠٠ ؟ متى يعود من البندر ؟ عنـدما يأتى فى الاجازة الصيفية تلتف القلوب حوله ٠ سنظل أحياء حتى تنتهى أيام الدراسة ؟ ماذا سيقول عندما يعلم أن الضبع ٠٠ ! :

« الخوف يلد خوفا ٠ خلت القرية من الرجال ؟ » ٠٠

دفن الأطفال وجوههن فى أحضان أمهم ٠ امتلأت الأعمـاق بالشروخ ؟ الى متى سندفن آلامنا فيهـا ؟ حتى تسرى سـمومها ٠ تتلفها ؟ تحرقها ؟ متى يحس الانسان بالأمان مع نفسه ٠ مع من حوله ؟

حطت عيناه على اللمبة نمرة خمسة ٠ لماذا بهت نورها ؟ هجم عليها الظـلام من كل جانب ؟ الفتيـل قصير ؟ لم تغسل زوجتى زجاجتها ؟ فرغت من الجاز ؟ ٠

أرهف سمعه ٠ منذ أن قدم الضبع الى قريتنـا أصبحت العصافير خرساء لا تغنى ٠ كفت أشجار النخيل عن وشوشاتها ٠ مات غناء الذين يقضون الليل فى الحقول ؟ سكن أنين السواقى ؟ استحال الليل الى أغنية رعب وقهر ؟ صار متاهة متجددة ٠٠ !

٥

ـ خلت الدار من الماء ٠ الدقيق ٠ الجاز ٠ الملح و ٠٠ لقد « زهقت » من الحبس بين الجدران ٠

ماذا تقصد زوجتك من قولها هذا ؟ تطالبك بالخروج من الدار؟ منذ أن حل الضبع بقريتنا توقفت الحياة فيها ٠ لم نعد نسمع نبض

وابور الطحين . أين يكمن الموت ؟ فى أزقة القرية ؟ بين أعواد الذرة ؟ خلف الجرن ؟ لماذا نقف عاجزين ؟ لماذا لا نحطم خوفنا ؟ أصابتنا البلادة ؟ تميع اصرارنا .. ! فى استطاعتنا أن نصرع الضبع . أهل القرية أقوى منه . انه لا يعرف الا الغدر . دائما يقبع فى الأركان. هكذا قالت جدتى عندما كانت تروى لنا حكايات كثيرة عن الضبع. لو غادر مخبأه وواجهنا ؟ لكنه يحفر تحت الأقدام .. كالثعبان .

تكور الليل فوق صدر القرية . كلما حلت العتمة . تطفو المخاوف . تهبط على النفس ظلال الموت . يثور تيار من التكهنات .

٦

انطلقت آهة مكتومة بجانبه . تحسست يده المرتعشة العصا الراقدة بجواره . قفز الضبع من فوق حائط الزريبة ؟ اقتحم حجرة الفــرن ؟

ميزت عيناه ابنه الأوسط يتلوى على الحصير . يدق الأرض بقبضتيه . ينشب أظافره . يغرس أسنانه فى كل شىء . ماذا أصابه ؟ طعنات الجوع .. ؟ عاوده مغص الجنب ؟ على الرغم من أن الحلاق على بعد خطوات من دارى . لا أستطيع الذهاب اليه ليعطى ولدى حقنة . برشامة تسكن آلامه : نظراته المستغيثة .

عينا زوجتى تصرخان باللهفة واللوم والحيرة :

ــ سنترك ولدنا يموت ونحن ننظر اليه ؟

نهض الطفلان الراقدان من نومهما :

ــ أريد أن أشرب .

ــ أنا جوعان .

ماذا أقول لأبنائى ؟ خلت الدار من الماء والخبز و..لا أستطيع أن أنظر الى وجوههم . أصبحت أخشاهم جميعا . عيونهم الضيقة

تخترق صدرى . تقرأ على ضـــلوعى أحرف الخوف ؟ بماذا أرد عليهم ؟ عيونهم تطرح ألف سؤال فى كل نظرة قلقة . فى كل رعشة جفن تسأل عن الكارثة . التساؤلات تكبر فى أحداق أولادى . تنتظر الاجابة .. الأيام تمر جافة . رهيبة . اذا انطلقت ضحكة تكون مكتومة . ذبيحة .. تشنجات مريض بالصرع .

وضع يديه على أذنيه . نظرات زوجتى الصامتة تجلدنى بألف سوط . تعذبنى . جدران الدار ترمقنى .. أريد الفرار . لكن .. الى أين .. ؟ اقتحام الضبع قريتنا هدم فى أعماقنا أحاسيس ومشاعر نحن فى مسيس الحاجة اليها . ضجت الضلوع بالألم . أحزاننا أقسى من كل شىء . ألم يحن الوقت بعد لنضع حدا لعذابنا و .. ؟ الى متى سنعيش فى الظـلام كالوطاويط ؟ متى نخـرج من قاع البئر .. ؟ :

ـ فقدت القرية القدرة على المواجهة ؟

منذ أيام حاولت زوجتى أن تذبح دجاجة . كادت أن تفطس فى يدها . كان الصدأ يغطى السكين :

ـ سأموت من شدة العطش .

جرت يده على رأس ابنه . ستعيد اليه النعاس ؟ تروى ظمأه ؟ ينسى عطشه ؟ :

ـ أى .. ىى .. ى ..

ـ ماذا تنتظر .. ياخليل ؟ حتى نموت فى الظلام ؟ تشبع الديدان من لحمنا ؟ فقدت القرية ارادتها .. ؟

ابراهيم أفندى يردد هذه العبارة :

ـ الانسان يستطيع أن يفعل ما يريد اذا ملك ارادته .

لكن لماذا لا توجه زوجتك لومها الى القرية كلها ·· ؟ لم تر سواك ؟ ألست زوجها وأحد رجال القرية ·· ؟ :

ـ سأموت يا أبى ··

ـ ألم تسمع صراخ ابنك ·· ؟ اذهب الى الحلاق ·

برقت عيناه · كلمات زوجتى ·· لدغات عقرب هائجة ·· هاهى تقولها صراحة ·· اذهب الى الحلاق ·· فرغ صبرها · ! ماذا تفعل لو كان الضبع يقف أمام الباب · يبقر بطن زوجتك ·· يقتل أولادك ؟ ·

مزقت السكون الترابى طرقات خفيفة · برزت العيــون من محاجرها · تجمع الجميع ؟ خرست آهات ابنه · الضبع يحوم حول دارنا ؟ يراقب فرائسه المطمئنة ؟ تحولت جوارحنا الى أذان تصغى الى الكلاب التى تقفز · تنبح من وراء الجدران ؟ حركة الماشية فى الزرائب ؟ أجنحة الطير على الأسطح · تصغى الى كل هذا · تربطه بمقدم الضبع ؟ أصبحنا نخاف من كل شىء ·· حتى أنفسنا ؟ كل ليلة نسهر حتى الصباح · عيوننا تتساءل · ستشرق علينا شمس الغد ؟ كلمة الضبع تملأ · تعبق سماء القرية بالخوف. والعفن · لو هجم علينا · قتلنا خير من عذاب الانتظار ·· !

هب واقفا · انبثق فى صدره ينبوع شجاعة مفاجىء ؟ أنياب الضبع أهون على نفسى من نظرات زوجتى · صراخ أولادى ·

دفع الحجر الجاثم خلف الباب · لم يتحرك من مكانه · تلفت حوله ·· وجدت نفسك عاجزا ·· ؟ فى قلبى ثقل لن يفرغ · يملأ كل أعماقى رهبة ورعبا ·

أقبلت زوجته تحمل اللمبة الصاروخ · أولادها يتعلقون بذيل جلبابها · لماذا تقف هكذا ؟ لماذا لم تمتد يدك نحو الباب ؟ العيون تجلب استفسارا جارحا · طعنة سكين :

ـ ماذا تنتظر !

ـ أين العصا ‥ أو الفأس ؟

٧

سبقته العصا من فرجة الباب . أطل الفجر بوجهه من وراء السحب . برزت فى ذهنه صورة الشيخ صابر بجلبابه الأبيض وهو يحث القرية على النهوض للصلاة والذهاب الى حقولهم .

شدد قبضته على العصا . أخذ يدق الأبواب بقبضته . رفرف قلبه بين ضلوعه . أصبحنا على موعد ؟ مللنا الانتظار والجلوس داخل الجدران ؟ قررنا مواجهة الضبع بدلا من أن نكون فيرانا فى مصيدة ‥ !

هبت نسمة . تحرك كل شيء . حتى الهواء . ؟ آلة الاستسلام ؟

أطلت العيون المتربصة . الوجوه المترقبة . اندفعت الجموع متدفقة صاخبة تحمل الشماريخ . الفئوس . آن الأوان لنمسح الحزن من العيون ؟ نعيد البسمة الى الشفاه اليابسة ؟ سنوفق . ؟

فرد لطفى أبو القاسم ذراعيه . توقف أهل القرية . ماذا يريد أن يقول ؟ سيتساءل عما نفعله بعد أن جبنا شوارع القرية بحثا عن الضبع ؟

انطلق صادق نحو الكوبرى . تبعه أهل القرية . مد ذراعيه ‥ بندقية مصوبة نحو فريسة :

ـ ها هو الضبع . نائم بين أعواد الحلفاء .

نائم ؟ كنا نتمنى أن يكون مستيقظا لكى نقابله وجها لوجه . لا نريد أن نضربه من الخلف . أشار لطفى بعصاه :

ـ اصنعوا حلقة حوله .. حتى لا يتمكن من الهرب .

ماذا أفعل لو قفز الضبع . أنشب أنيابه فى وجهى ؟

ارتعشت ركبتاه . تلفت حوله . ماذا سيقول أهل القرية لو لمحوا الرعشة التى تسرى فى يدك ! لست وحدك الذى يملأ الخوف صدرك ؟ .

تقدم شيخ الخفراء . أطلق مقذوفا . لماذا لم تنطلق من فم الضبع ... ؟ لماذا لم ينتفض من نومه ؟ مكشرا عن أنيابه . يندفع نحـونا . ؟

توقفت العصى المشرعة عندما راح شيخ الخفراء يمزق أطراف الضبع ... البلاستيكية .

الطاعون ...

الطريق طويل . ينحدر فى استسلام الى دوامة الظلام . لو انشق عنه رجل أو صوت يؤنس وحدتى ؟ مع كل خطوة يقف أمامى الخوف ماردا أبكم . أنفى يمتـد . أذناى منشورتان تتلقيان أوهى الأصوات. قدماى متأهبتان للجرى. قلبى يلهث. أحس بالاختناق.

الأشجار كثيفة .. أشباح ليلية .. حفيف الريح يفزعنى . استحال الى عواء ذئاب تطاردنى ؟ لو أحس بى أو رآنى سينطلق ورائى . اذا صرخت أو استغثت سوف يخف أحد لنجدتى ؟ أهل القرية خلف الأبواب ينـامون تحت الأغطية . ماذا ينتظرون ؟ سيأتى أحد من قرية أخرى ويقتله ؟ سوف يهبط ملك الموت ويقبض روحه ؟ لو باغتنى الآن .. ! أموت بلا ثمن !

الأمل فى الوصول الى القرية أثقل من وطأة الخوف . اقتربت من المقابر الطينية الســوداء . حاولت أن أقتل شعور الرعب فى أعماقى . ربما للحظات . لكنه عاد قويا متدفقا . أريد أن أهرول . قدماى تزحفان . لو أفسحت الخطو ربما شعر بوجودى .. !

ازدادت العتمة غلظة . عندما كنت صغيرا كنت أتعلق برقبة والدتى . أجد فى أحضانها حماية من أشباح الظلمة التى كنت أخشاها .

خفق قلبى بعنف . زلزل ضلوعى . تسمرت مكانى . تطلعت الى الذئب بعينين متحجرتين . راح يتواثب أمامى . عيناه تومضان. من أين جاء ؟ تسلل من المقابر ؟ كان يربض بين أطلال الساقية المهجورة ؟ تتابعت صرخاتى عنيفة . هادرة . لماذا ظل الطريق هادئا؟ ابتلعت الظلمة استغاثتى ؟ لم تغادر صيحاتى شفتى ؟ دوت فى صدرى ! لكن الصرخات مزقت أذنى . فمى كان مغلقا . !

كيف تملصت من مخالبه وأنيابه ؟ تحسست جروحى . غاصت أناملى فى بطن دوامة .. شق خنجر .. الصمت يشيع فى أوصال القرية . كيف وصلت الى هنا ؟ لماذا لا أشعر بألم ؟ كل البيوت معتمة . لا ضوء فى نافذة ولا شعاع يتسلل من بين فكى باب ؟ نباح الكلاب الشيء الوحيد الذى يعلن عن الحياة .. ! لماذا لا تنطلق اليه بدلا من هياجها فوق الأسطح . خلف الجدران ؟

كوم السباخ يقف بعيدا . جبل . يفوح منه العفن . منذ أن احتل الوسعاية لم تصافح أنوفنا نسمة عطرة . صنع الذئب فى جوفه جحرا ؟

ذات يوم لمح أبى ثعلبا يتسلل الى حظيرة الدجاج . انطلق وراءه . دخل جحرا فى بطن شريط السكة الحديد . أشعل قليلا من القش مع بعض نباتات الحلفاء التى تنمو على فوهة الجحر .. ضحكت جدتى :

ــ الثعالب والذئاب لها أنفاق كثيرة تحت سطح الأرض .

وضعت المفتاح فى ضبة الباب . زوجتى تجلس أمام الفرن . تصنع لفائف من القش . تقذف بها فى جوف الفرن المشتعل .

جملى راقد فى الزريبة . يجتر طعامه . فى العام الماضى بينما كنت ألقم فمه بأعواد البرسيم . عض يدى . أخذت واحدا وعشرين حقنة فى بطنى . كم حقنة سآخذها .. اليوم ؟ :

ـ أأحضر لك رغيفين ساخنين و ... ؟

رغيفان ساخنان ؟ ليس لدى شهية .. الطعام فقد مذاقه فى الأفواه :

ـ ماذا بك ؟

أأخبرها بما حدث ؟ لم لا ؟

ملأت كلماتى وجهها بالذعر . سقط الرغيف من فوق المطرحة على الأرض . طوحت زوجتى بذيل جلبابها . هبت زوبعة من الردة والدقيق . انطلقت الى الأسطى عرنوس الحلاق .

القمر ينشر ضوءه الشاحب الحزين فى صحن الدار . سألت أبى ذات ليلة :

ـ متى يتخلص القمر المشنوق من حبل المشنقة ؟ متى تعزف الأشجار ترانيمها ؟

ـ عندما تجود الأرض بالرجال .

ـ الأرض دائما تجود .

أقبل أهل القرية . استحالت نظراتهم المتسائلة الى مزيج من الدهشة والخوف . تشابكت الكلمات :

ـ متى قابلت الذئب .. ؟

ـ كيف أفلت من مخالبه .. ؟

ـ هل تؤلمك الجروح .. ؟

هناك جرح بلا ألم ؟ الكل يعرف الحقيقة . انها قاسية . لكنها

لن تـكون أقسى من مخالب وأنيـاب الذئب ٠ لمـاذا نخفى عيوننا بأيدينا ؟

عندما كنا أطفالا نلعب « عسكر وحرامية » ننطلق فى الأجران والحـوارى ٠ حينما يدركنا مطاردونا نلصق وجوهنا بالحائط ٠ يقبضون على أكتافنا ٠ تنطلق ضحكاتهم الساخرة ٠

الأيدى معقودة على الصدور الواجفة ٠ الرءوس منكسة ٠٠ علامات استفهام ٠٠ العيون مربوطة بمواضع الأقدام العارية ٠ كل من جاء الآن لم ينهش الذئب أحدا من أهله أو أصدقائه ؟ ليس لدينا الشجاعة لنواجه بها التحدى الرابض فى ذئب على مدخل قريتنا ؟ عشش الخوف فى صدورنا ؟ نسج الجبن خيوطه فى أعماقنا ؟

هتف حسن أبو الخير :

ـ القرية كلها تعلم أن الأرض البور والساقية المهجورة هى التى جلبت الذئب فلو ٠٠٠

قاطعه الشيخ صالح خطيب المسجد :

ـ لا تتحدث عن لو فان لو تفتح عمل الشيطان ٠ نريد مخرجا من هذا التيه ٠

تبادلت العيون الحائرة تساؤلات صامتة ٠ لماذا نسكت عند هذا القول ؟

تقدم الأسطى عرنوس نحوى ٠ فى يده حقنة ذات ابرة طويلة لامعة ٠ أغمضت عينى ٠ جرشت أسنانى ٠

استيقظت من نومى على صوت استغاثة ٠ من أين مصدرها ؟ عادت الصرخات تمزق السـكون ٠ هرعت نحـو النـافذة ٠ لطم الظلام عينى ٠ ماذا حدث ؟ تسلل لص الى احدى الحظائر ؟ تشاجر رجل مع زوجته ؟ نشب حريق ٠٠ ؟

خرجت النساء مفزعات يستطلعن الخبر . كنست المصابيح البترولية تلال العتمة . أجساد مهزولة تجرى ملهوفة تجاه الصوت الحاد المستغيث . التقى أهـل القرية فى جرن الحاج شربينى . ازدحمت النوافذ بالعيـون المستطلعة . حطت فوق جسـد بدوى عبد المجيد المكوم على الارض : الدم يتدفق من ذراعيه وعنقه . على الوجوه الذابلة تقطيب وألم . فى أعماق العيون ضيق ويأس .

منذ شهرين وقف الأسطى حافظ الطحان وأعلن ضرورة ايجاد حل . طأطأ أهل القرية رءوسهم .

تسللوا من وابور الطحين متلصصين . لوح بدوى عبد الحميد بيديه :

ـ كل واحد يغلق باب داره بالضبة والمفتاح ولا يغادرها بعد الغروب .

هشم الصمت صوت غليظ .. غزاب شارد :

ـ لماذا لا نقيم طريقا آخر أو مدقا جديدا . بعيدا عن طريق المقابر وكوم السباخ والساقية المهجورة ؟ حتى نبتعد عن الذئب .

طريق آخر ؟ مدق جديد ؟ ماذا نفعل لو عرفهما ؟ بدوى كان يظن أنه اذا أغلق باب داره لن .. !

هتف الأسطى عرنوس :

ـ سنترك بدوى هكذا ؟

خرجت الاجابة على سؤاله مرتعشة . تلطخها الحيرة والخوف والحسرة . أصبحت نفوسنا فريسة لها ؟ ماذا ننتظر ؟ ألا يكفى ماحدث ؟ حل الحزن مكان البسمة ؟ كل الأفراح التى شهدتها القرية كانت بلا زفة ولا حتى زغرودة ؟ مضى مولد سـيدى الجنزورى دون ان ترتفع راية له .

عاد الأسطى عرنوس يتساءل :

ـ ماذا قلتم يا جماعة ؟

خيم الصمت من جديد ٠ ألم يسمعوا استفسار الأسطى عرنوس ؟ :

ـ السلام عليكم ٠

ـ وعليك السلام يا حضرة العمدة ٠

رفع الخفير الذى جاء معه الكلوب بحذاء كتفه ٠ انسكب الضوء على جسد بدوى ٠ طافت عينا العمدة بالوجوه المرصوصة ٠ تحركت شفتاه ٠ لم يند عنهما حرف ٠ كان يريد أن يقول شيئا وعدل عن رأيه ؟ انه مشغول بانتخاب الجمعية الزراعية وترميم المدرسة الابتدائية ٠ فريق كرة القدم ٠ لو كان يهتم بأمر الذئب كما ٠٠ ؟

أحس بألم حاد فى صدرى ٠ ذات مساء شكت أمى من صدرها ٠ بصقت دما ٠ ركبت حمار حامد بن شوقية ٠ ذهبنا الى الطبيب ٠ كتب روشتة طويلة :

ـ الدواء الأول سيمنع تساقط شعر رأسها ٠ الدواء الثالث سوف يمنع آلام أظافرها أما الدواء الخامس ٠٠٠

ـ انها تبصق دما ٠٠ صدرها ٠٠

انكفأ العمدة يتفحص بدوى ٠ صاح حامد بن شوقية :

ـ كل يوم ضحية ؟ لو كنا ذبابا نطن فوق رأس الذئب لأفزعناه ٠

قال الحاج شربينى :

ـ أخبرنا ٠٠ كيف ٠٠ ؟

ـ نتخلص من الصمت والخوف . اذا كان الذئب يربض عند مدخل القرية . اليوم . ماذا يمنعه من أن يقف أمام أبوابنا غدا ؟

ارتجفت العيـــون فى المحاجر . ارتعشت الشـــفاة . طال الانتظار . لم يحن بعد الوقت لنزيل الدمل من الخد البدرى ؟

منذ أن ربض الذئب عند مدخل قريتنا . الأرض دب فيهـا الذبول . الجفاف . البوار . لم تثمر الأشجار . حطت الغربان . الحزن خنق القمر .

شق الأسطى حافظ طريقا بين الأجساد المتراصة . ما زال « هبو » الدقيق يتعلق برموش عينيه وأذنيه :

ـ لو واجهنــا أنفسنا بالحقيقــة ستعرف الفرحة طريقها الى قلوبنا التى استقرت فيها الأحزان . لكن ما دمنا نغرس وجوهنا فى الرمال كالنعام .. !

تقابلت عيناه بعينى . استفسر عن حالى . ربت على يده .

جلس الأسطى عرنوس بجوار بدوى . أخرج من حقيبته الجلدية حقنة ذات ابره طويلة لامعة .

هتف الأستاذ خليل مدرس الابتدائى :

ـ أقسى أنواع الخوف الذى يتدفق من نفوسنا .

عدت اتحسس جراحى . غاصت أصابعى فى أفواهها . لها ملمس اللبن « الرائب » :

ـ لدى اقتراح

ـ ماهو ؟

ـ يتطـوع رجل من القرية ونقدم اليه بندقية ثم يذهب الى الذئب .

حطت على الوجوه سكينة ووجوم . نكست بعض الرءوس . ومضت فى عيني اللهفة :

ـ ما رأيكم ؟

ما زالت الأعين الساكنة محصورة بين الأقدام · لم يعجبهم اقتراحى ؟ لم يتوقعوا أن أواجههم بمثل هذا الاقتراح ؟

هتف الأستاذ خليل :

ـ ماذا قلت يا حاج شربينى ؟

ـ أنا ·· ! لا · لن أكون سوى ضحية ·

ـ معنى هذا أنك ·· ؟

ـ على أى أساس وقع الاختيار على ؟

ـ ألست رجلا من رجال القرية ·

ـ بلى ·· ولكننى لست الرجل الوحيد فيها · ألا يوجد فى القرية خفراء ؟ هيه ! ثم أننى وضعت رتاجا كبيرا لباب دارى · رتاج ؟ الذئب لا يعرف الأبواب ·

قال الشيخ صالح :

ـ « أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » · خالد بن الوليد خاض مائة معركة · كان يتمنى أن يموت شهيدا فى احداها · لكنه مات على فراشه ·

التفت الأستاذ خليل نحو حسن أبو الخير :

ـ ما رأيك ؟

ـ لماذا أنا بالذات ؟ فى القرية رجال كثيرون ·

لوح الشيخ صالح بيده :

ـ ما رأيكم لو اخترنا من بيننا ستة رجال وقدمنا لكل واحد بندقية ؟

انشقت الشفاه اليابسة عن بسمة دافئـة . صادف اقتراح الشيخ صالح قبولا ؟ منذ أن اجتاح الطاعون قريتنا لم أر شبح ابتسامة تخفق على الوجوه .. ترقص فى العيون .

واصل الشيخ صالح قوله :

ـ يد الله مع الجماعة . وأن ينصركم الله فلا غالب لكم .

زعق العمدة :

ـ من هم الرجال الستة ؟

تقدم الشيخ صالح والأستاذ خليل والأسطى حافظ . لحقت بهم .. :

ـ أين بقية الرجال ؟

هتف حامد بن شوقية :

ـ أنا الخامس .

دقت أمه صدرها العظمى بيدها المعروقة :

ـ لا يا حضرة العمدة لا تسمع الى قوله . يريد أن يطعن جرحا ما زال ينزف ؟ أنسى أن أخاه الأكبر راح ضحية الطاعون منذ ست سنوات ؟

جلس حامد على حجر كبير بجوار الحائط . أحسست فى صمته اصرارا . رأس حامد أكثر صلابة من الحجر الذى يجلس عليه :

ـ سأذهب مع الرجال ولو بدون بندقية .

لفحت تنهيدة شوقية وجهى . أدركت أن ابنها لن تجـدى معه المجادلة والتوسل ؟ راحت تتمتم بدعاء خافت .

صاح العمدة :

ــ بقى رجل ٠

قدم الخفير الكلوب الذى كان فى يده الى شوقية :

ــ أنـا ٠٠

احتضنت البندقية ٠ عندما سحبت جسدى من بين الأجساد المتراصة على الحصير كانت زوجتى نائمة ٠ تحتضن ابنى الذى كان يلقم ثديها ٠

اقتربنا من الساقية المهجورة ٠ أحاط ثلاثة منا بها ٠ انطلق الآخرون صوب الأرض البور ٠ الأصابع المتيقظة على الزناد ٠ العيون تبرق بالسخط والوعيد ٠ سنعثر على الذئب ؟

الجنابية ...

١ ـ الساقية :

ضم « البشت » الى جسده . لماذا لم يجلب اليه الدفء ؟ صار قطعة من الثلج ؟ مد بصره . الليل طويل . فاحم . بالأمس كانت السماء صافية . استطاع أن يعد النجوم . ما زال الفجر بعيدا ! متى يأتى ؟

أرهف سمعه . غفت الساقية ؟ هتف بفتح الله . جاءه صوته من نهاية التربيعة :

ـ سأفتح الحوال الثانى لكى نروى ذيل الأرض .

ماذا يعنى ؟ أأنهض من رقدتى وأسوق الساقية ؟

أمسك بالفرقلة . لماذا تسرع الجاموستان هكذا ؟ ما هـذا الصوت الغريب الذى تحدثه الطنبوشة ؟ هرع الى «خوخة» الساقية. مد ذراعه فى ثغرها .. لماذا لا يتدفق الماء بغزارة ؟

وضع الفرقلة على كتفه · أسرع نحو الجنابية · الدنيا كحل · جلس على الشاطىء · تشبثت يداه بنباتات الحلفاء · تدلت قدماه · لماذا لم تصلا الى الماء ؟ ماذا حدث ؟ أغلق يوسف فم الترعة ؟ :

ـ الدور سينتهى اليوم · لا أنكر أنك تقدم الى « المسنية » كيلتين قمح وثلاث كيلات أرز · لكن ··

أغلقت فمه الواسع بصندوق سجائر :

ـ أرجو أن تنتهى من رى أرضك قبل منتصف الليل · قد يأتى مهندس الرى و ···

قفز الى الشاطىء :

ـ لماذا توقفت الساقية ؟

ـ انخفض الماء فى الجنابية ·

ـ أغلق يوسف فم الترعة ؟

ـ مستحيل ·

كيف نطق لسانى بهذه الكلمة ؟ ظن يوسف أننى رويت أرضى ؟ لكن ما زال نصفها شراقى · خشى أن يأتى مهندس الرى ويعاقبه ؟ أراد أن يذهب اليه فتح الله يسترضيه بباكو معسل ؟ :

ـ نعيم · اذهب الى فم الترعة واستطلع الأمر ··

أأذهب بمفردى ؟ لو صحبت فتح الله معى من سيحرس الجاموستين ؟

العتمة تملأ الغيطان · قدماه تحفظان الجسور · طرق القرية خالية الا من العواصف والوحشة · لو عثرت على أحد يؤنس وحدتى ! لو أمطرت السماء · ألا يكفينا هذا القرف ؟

وقف بجانب سور فم الترعة · الماء يتدفق فى سكون · لم يغلقها يوسف · لماذا انخفضت المياه فى الجنابية ؟ سار نحو الماسورة

الموصلة اليها .. نشر أذنيه . أين صوت الدوامة التى تبتلع الماء ؟ سدتها الحشائش ؟ منذ أسبوع وجدت بها حزمة قش . كادت تبتلعنى فى جوفها عندما سحبتها من حلق الماسورة . لكن كان ذلك فى الصباح . كيف أنزل فى الترعة الآن ! الدنيا برد كالرصاص . لا يستطيع الانسان أن يرى يده . أخائف ؟ أصدقاؤك يقولون دائما ان قلبك مبت .

وضع يده على صدره . ابتسم . كيف أكون ميت القلب وأنا أحس دقاته بين ضلوعى ؟ أكاد أسمعها . أأنتظر حتى الصباح ؟ النهار له عينان . الدور آخره اليوم . يوسف طلب منى أن أنتهى من رى الأرض قبل الفجر . لو انتظرت .. !

سيغلق فم الترعة . ستظل الجنابية جافة ثمانية أيام . نصف الأرض لم يرو بعد ، ستموت نباتات القمح ؟ تصبح الأرض سبخا !

خلع بلغته وجلبابه . غاصت قدماه وصدره فى الماء . مد ذراعيه .. أعمى يتحسس طريقه .. اقتربت يداه من فوهة الماسورة الاسمنتية ، ارتطمتا بجسم لين . انتفض مفزعا . وثب الى الشاطىء .. تفوح منه رائحة المباغتة والذهول . راح يعدو وسط الحقول .. طفل مذعور .. أطلق عبر حنجرته صيحة استغاثة ، أقبل فتح الله . لاهثا :

ــ ماذا هناك ؟

حاول أن يوضح الأمر فى كلمة ونصف . لم يسعفه لسانه بشىء .

٢ ــ الجثة :

ــ ماذا تقول ؟ وجدت جثة محشورة فى ماسورة الجنابية ؟

ــ نعم .

أحس بسياط البرد تجلد جسده · أين جلبابه وبلغته ؟ تذكر أنه نسيهما على شاطيء الترعة · جذب فتح الله من يده · سارا صامتين · حشر جسده فى جوف جلبابه · دس قدميه فى نعليه :

ـ ماذا نفعل الآن ؟

ـ يخيل الى أنها جثة حسين بن بهانة · خرج أمس بعد العشاء ليشترى باكو شاى ومشط كبريت · لم يعد حتى الآن ! لابد أنه قتل · هناك ثأر قديم بينه وبين عائلة الزيادية ·

ـ ماذا تقولان ؟

أجفلا · التصق جسداهما · باغتهما الصوت الخشن ؟ فوجئا بالسيرقى الخفير خلفهما ؟ ضرب الأرض بدبشك البندقية :

ـ أريد أن أعرف الحكاية من بدايتها حتى نهايتها يا «سى» نعيم

ما هى حكاية « سى » ·· ؟ لماذا تفوح من لهجته السخرية ؟ لماذا يوجه الى كلامه بالذات ؟ :

ـ لم لا تسأل فتح الله ؟

ـ وأنا مالى ·

هو ماله ؟ لماذا تلاشت حدود الجد والمزاح فى قوله ؟

وضع الخفير يده على كتف نعيم :

ـ جثة من التى ·· ؟

ـ لا أعرف ·· لقد مست يدى فخذا ··

ـ كيف لا تعرف جثة من كان يسير معك قبل المغرب شرق البلد ؟

ـ تقصد ·· ؟

ـ نعم · جثة رمضان اسماعيل ·

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لا داعى للانكار ٠

ـ اننى لا أنكر أن رمضان كان معى بعد العصر لكن ٠٠

ـ لكن اتقوا مواطن الشبهات ٠

الله ٠ الله ٠ لم يعد سوى الدسوقى يتحدث بالحديث والآية ؟ :

ـ تكلم يا نعيم ٠

ـ انك تحدثنى وكأنك المأمور ٠

ـ ستعرف بعد قليل اذا كنت المأمور أم ٠٠ ؟

ماذا يعنى ؟ يهددنى ؟ كيف جاء الى هنا ؟ سمع صرختى ؟ أين ذهب٠٠؟ انه لايملك وسيلة لتهديدى سوى تخويفى بالبوليس٠ ماذا فعلت حتى يتوعدنى ؟ ماذا كان يعنى بأن رمضان اسماعيل كان يسير معى من قبل ٠٠ ؟

هتف فتح الله :

ـ أتريد الحق ؟

ـ نعـم ٠

ـ أنت مخطىء ٠

مخطىء ؟ لماذا ؟ كيف يصدر حكمه قبل أن ٠٠ ؟ ألم يسمع كلمات الخفير ؟ :

ـ يا نعيم انك لم تفهم قولى ٠

لا ضرورة لأن أفهم كلامه ٠ انه لم يع ما ينطق به لسانه ٠ ما الذى دعانى لأن أستشهد به ؟ ارتكبت خطأ ؟ اقترفت ذنبا ؟ لماذا قال : أنا مالى ! هل الأمر ٠٠ ؟

اقترب من نعيم ٠ أمسك ذراعه :

ـ أقصد ٠ لماذا لم تهمس فى أذنى أنك وجدت جثة محشورة فى الماسورة ٠ ؟ ثم كان يجب أن تسحب ناعم للدسوقى ٠ أخشى أن يذهب الى العمدة و ٠٠

ـ لا يهمنى ٠

ـ واذا انتقل الخبر من عتبة الى نافذة وأضاف كل لسان كلمة وتخمينا ؟

ـ هل ارتكبت جريمة ؟

٣ ـ ثلاثة رجال وامرأة :

أقبل أهل القرية ٠ وقفوا على جسر الترعة ٠ عيونهم مصوبة نحو الجثة الراقدة فى جوف الماء ٠ يريدون أن تنفذ نظراتهم اليها ويعرفون صاحبها ؟ لماذا يقفون صامتين ؟ عرفوا الحكاية ؟

تعثرت نظرات نعيم فوق شارب العمدة المسنون ٠ استقرت على عينيه ٠

تذكر السهارى التى تستقر فى ركن الصالة عندما يشح فيها الجاز :

ـ أخبرنى يا نعيم بما حدث ٠ « طراطيش » الكلام الذى سمعته لم يعطنى صورة واضحة عن ٠٠

ـ ٠٠٠

ـ ألم تسمع قولى ؟ لن يفيدك الانكار !

انكار ؟ لماذا تفوح من نبراته رائحة الاتهام ؟ أخبره الدسوقى أننى ٠٠ ؟

جاهد لازاحة الرهبـــة التى خلفها قول العمدة · ذات يوم سقط حجر كبير أمام بئر الساقية · منع تدفق الماء اليها · قبض أبى على معصمى · زحزحنا الحجر نحو الشاطىء · لو كان والدى معى الليلة ! ليتنى لم أذهب الى فم الترعة بمفردى · لكن هل دخلنا فى علم ربنا ؟ :

ـ يا نعيم اعترف لكل جريمة فاعل ·

أعترف ؟ ماذا يقصد بهذا القول ؟ يعتبرنى الفاعل ؟ أنا الذى ارتكبت هذه الجريمة ؟ لماذا لا يسأل فتح الله ؟ كنت نائما بجوار المدار تحت « البشت » · هو يسوق الساقية ·

لكنه قال وأنا مالى · يريد أن يلصق بى التهمة ؟

عاد العمدة يتوعده بالنيابة والليمان · الرعب يسرى فى عروقه بدلا من الدم ؟ سيلقى بى فى السجن ؟ وأحرم من ارتداء جلبابى السكروتة والحذاء « الأجلسيه » والشال الحريرى ؟ · لا أقابل سعاد ؟ لن يتم زفافنا عقب دراس القمح ؟ كيف أحاسب على جريمة لم أرتكبها ؟ ·

تقدم أكثر من رجل يطلب من العمدة العفو والسماح · تشبث بموقفه ·

هتف قبانى القرية :

ـ ما رأيك لو دفعنا الجثة فى عرض الترعة وسيحملها التيار الى الكفر ؟ وبذلك نبعد عنا المسئولية ونفض الحكاية ·

زعق العمدة :

ـ غير موافق ·

نطق أبى بهاتين الكلمتين عندما عرض والد سعاد فكرة تأجيل الدخلة بعد جمع القطن ·

أصر أبى على أن يكون الزفاف عقب دراس القمح ·

جلس أهل القرية بين أعواد الغاب وفوق سور فم الترعة · أشار شيخ البلد بيده :

ــ يخيل الى أن هذه جثة عزيزة زوجة الحداد ·

تناثرت التعليقات :

ــ منذ أن جاءت من البندر هذه العاهرة وحلت علينا المصائب·

ــ انها ككلبة الطبال · كانت تسير ووراءها جيش من الكلاب·

صفق شيخ الخفراء بيده :

ــ الثرثرة لن تقطع عرقا ولن تنزف دما ·

أول أمس عقدت رهانا مع فتح الله على أن أقطع ثلاثة أعواد قصب بسيف يدى بضربة واحدة · ربحت الرهان · ما زال فتح الله غاضبا منى ؟ يرمينى فى مصيبة من أجل قروش معدودات ؟ لا · لقد ضحك وطبطب على ذراعى بعد أن دفع ثمن القصب ·

خمدت الضجة · تطلعت العيون نحو القرية · تدحرجت الهمسات من فم الى فم :

ــ الضابط قادم · الضابط قادم ·

أسرع الدسوقى نحوه · أمسك بلجام حصانه الأبيض :

ــ اعترف الجانى يا حضرة العمدة ؟

يعتبرنى هو الآخر جانيا ؟ لماذا قلب العمدة كفيه ؟ ترك الأمر له ؟ :

ــ أنا على يقين أن هذه جثة عبد ربه · كان يحب سعاد التى ستتزوجها · جاءنى الليلة الماضية · أخبرنى أنك تهدده بالقتل اذا اقترب من بيت سعاد · طلب منى أن آخذ عليك اقرارا حتى لا تتعرض له · لكن يبدو أنك ···

شيء يتململ في أعماقه · يفسح المكان للغضب والخوف · خنق رعشة كادت تجتاح جسده · سكنت أوراق النخيل حين ماتت الريح ؟ انغرست في وجه نعيم ألف عين · طافت نظراته القلقة على ملامحهم · لماذا تبدو متجهمة ؟ ماذا يدوز برءوسهم ؟ صدقوا قول شيخ البلد والضابط ! مصائب لا نهاية لها في انتظارى ؟ لدى قدرة على احتمالها ؟ لو كانت سعاد هنا الآن ؟ لماذا لم تأت ؟ أخبرها أحد بما حدث ؟ صدقت أننى ·· ؟

طفا أمام عينيه وجه أمه · كانت تدعو الله بأن يكتب لك في كل خطوة سلامة وأن تبتعد عنك المصائب · أين كل ذلك ؟ :

ـ اعترف وسأعاملك بانسانية ··

تعاملنى بانسانية ؟ يدك التى تشبه خف الجمل تعرف معنى الرحمة ؟ :

ـ قل الحقيقة وسوف أخلصك من التهمة ·

الحقيقة انك تريد أن تظهر مهارتك وبراعتك على حسابى أمام المأمور لكى تحصل على العلاوة والترقية :

ـ ماذا قلت · ستعترف ؟

ـ نعم ·

ـ هكذا يكون العقل · لن تنكر جريمتك ؟

ـ أنا لا أنكر شيئا · لكن أريد أن أعرف هذا الشيء الذى فعلته ؟ أريد أن أعرفه تفصيلا !

ـ ستعود الى اللف والدوران ؟ اذا لم تتكلم سألقى بك في اسطبل الخيل ·

اسطبل الخيل ؟ شبانة العوضى عندما ضبط متلبسا بسرقة ذكر بط في بيت فقيه المسجد قضى فيه ليلة سوداء كقرون الخروب·

حينما خلع ملابسه أمامى ليستحم فى الترعة كان جسده كالجزورة المشوية :

ـ فيم تفكر يا نعيم ؟ بدأت تلوم نفسك ؟

لا يلوم الانسان نفسه الا اذا خاف عقابا يتحقق عن فعلته ؟ ماذا فعلت ؟ فتح الله يقول انها جثة حسين ابن بهانة والخفير يخمن أنها جثة رمضان اسماعيل وشيخ البلد يدعى أنها جثة عزيزة والضابط يصر على أنها جثة عبد ربه ٠٠ ! أليس من الجائز أن تكون قد قتلت ولم تدر ٠٠٠ ؟ يقولون أن الانسان يسير أحيانا وهو نائم ٠ يقوم بأعمال دون أن ٠٠ هل ٠٠ ؟ لا ٠ لا متى ٠٠ ؟ اننى أخاف من لون الدم ٠ لم أقتل فى حياتى ذبابة ولا صرصورا ٠ عندما ذبحت أمى أوزة يوم عاشوراء الماضى أخفيت وجهى فى باب الزريبة :

ـ لا تتعب نفسك ٠ تكلم والا سنحولك الى النيابة ٠

نيابة ؟ لماذا لا يخبره فتح الله أننى ٠٠ ؟

ارتفع صوت من بين أعواد الذاب :

ـ لماذا لا نخرج الجثة وندفنها ثم نكفى على الخبر مجورا ؟

اختلطت الأصوات ٠ رفع الضابط كرباجه ٠ تمدد الصمت صار عواء ؟ :

ـ لا أريد أن أسمع مزيدا من الكلام الفارغ ٠ لابد أن يأتى وكيل النيابة والطبيب الشرعى ٠

٤ ـ تساؤلات :

تعالت الهمسات ٠ ماذا يقول أهل القرية ؟ كل واحد يحكى الحكاية بأسلوبه الخاص ؟ يرويها ويطعمها بخياله ! لا يهمنى كلام أحد ٠ يكفينى أن تقف سعاد بجانبى ٠ أين هى ؟ المهم أن تثق بى ٠

تعلم أننى لست قاتلا ؟ كيف أثبت براءتى ؟ ستظهر الحقيقة كما تظهر الشمس من وراء السحب ؟ متى ·· ؟

ألقى نظراته الذابلة المتوسلة تحت قدمي الضـابط · ماذا يخشى ؟ الحكاية لاكتها ألسنة الناس جميعا ؟ اتسع الموضوع وتطور الى درجة مخيفة !

زعق العمدة بنساء القرية أن يبتعدن حتى يتمكن الرجال من خلع ملابسهم واخراج الجثة · تلكأن · أطاحت خيزرانة الدسوقى وعصا شيخ الخفراء بهن ·· ارتفعت صيحاتهن ··

فرش القش وأعـواد الصفصاف فى المصلى المقـام على جسر الترعة · أشار العمدة الى أربعة من رجال القرية · خلعوا ملابسهم · وثبوا فى الماء · صوبت العيون المتلهفة نحوهم · اقتربوا من فم الحنابية

استيقظت الهمسات :

ــ ترى من صاحب الجثة ؟ حسين ؟ رمضـــان ؟ عزيزة ؟ عبد ربه ؟ أم جثة انسان آخر ·· ؟

عينا عامل التليفـــون تتأرجحان بين شفتى العمـــدة وفم الضابط ·· بندول ساعة مختل ·· أذناه منشورتان · ماذا يريد ؟ يتعجل كلمة ليبلغ الاشارة الى المركز ؟

سقطت الشهقات من الأفواه عندما دفع الرجال الأربعة بجثة حانوتى الكفر الى جسر الترعة ·

الرقص خارج الدائرة ..!!

ــ يا نهار كالطين .

انتفض من مكانه . كاد ذيل جلبابه أن يغرف « المنقد » المشتعل . التقط براد الشاى قبل أن ينسكب . لماذا نطقت زوجتى بكلمتيها هاتين فى صوت مشحون بالذهول ؟

وقف على عتبة الباب « الوسطانى » اكتسحت عيناه القلقتان صحن الدار . أين هى ؟ فوق السطح ؟ لماذا صرخت هكذا ؟ وجدت ثعبانا فى برج الحمام ؟ مات أحد أبنائى ؟ شبت النار فى الدار مرة أخرى ؟ :

ــ ماذا حدث ؟

ــ مصيبة .

لماذا خرجت الكلمة من بين شفتيها مرتجفة تفيض بالحسرة ؟ :

ــ أخبرينى ماذا .. ؟

ــ سرقت الجاموسة .

سقطت من فمه شهقة . كلمتاها تحملان رنة الفجيعة . طعنتا أذني ؟ . رنتا بين جدران رأسي بكل معانيهما وهجهما .. ؟

فاضت عيناه بحيرة عميقة . تواثبتا بين النقب الواسع في حائط الزريبة ووجه زوجته الصغير القمحي . لم أر منها مثل هذا الحزن . لماذا تعكر وجهها هذه المرة ؟ يوم أن شبت النار في دارنا . اكتسح الطوفان أرض القمح . لم يعرف الكدر والزوابع . قابلت كل ذلك بابتسامة . زلزلت كارثة اليوم كيانها ؟ كانت الجاموسة حبيبة الى نفسها . بعد أن أطفأت النار . سقط سقف الزريبة . كسرت ساق الجاموسة . **بكت زوجتي :**

ــ ليت قدمي كسرت بدلا من ساقها .

الكآبة تملأ صدره . رفع وجهه الى السماء ، السحب القائمة تكسوها . طافت غيوم بعينيه . برق في ذهنه سؤال .. ماذا سيفعل أهل القرية عندما .. ؟ :

« ولا يهمك يا نجدي . ستشرى لك جاموسة بدلا منها . ان يدك علينا لا تكافأ بمال . لم ننس أنك كنت مسئولا عن اقرار الأمن في القرية . أمن فيها الخائف . أوى اليها الضائع . وجد فيها الملهوف معونة وغوثا » .

« ولكن ما حدث اليوم .. » .

« لا تشغل بالك . لست أول ولا آخر من سرقت جاموسته . مازلت رجل القرية كلها » .

تنهد ، قفز الى مخيلته وجه عابش . لماذا يخرج لك لسانه ؟ :

« كنت رجل القرية .. أيام زمان » .

عض شفته في قوة . وضعت زوجته يديها على كتفه في وداعة:

ــ لا تحزن . لقد ضاعت الجاموسة . قد تعود ثانية .

أمسك بيديها برفق • أزاحهما عن كتفه • تعود الجاموسة ؟ هناك شيء يضيع ويرجع ثانية ؟ تريد زوجتك أن توارى جزعها ؟ تهون عليك من هول المصيبة ؟

لمح سعيد مرعى يتمسح بالجدران •• كلب أجرب •• لماذا تتسع على فمه الرطب ابتسامة بلهاء ؟ رأى النقب فى جدار الزريبة ؟ سينطلق فى أنحاء القرية يقفز فى الأزقة والحوارى • ينشر الخبر !

لماذا ازدادت ضربات قلبى ؟ فتح اللصوص على بابا •• ؟ كل من يمر بدارك يلقى نظرة داخلها ؟ صارت فرجة تمتد منها العيون ؟ تعرف كل ما بداخلها ؟ لو كان النقب ضيقا لسددته بقالبين طوب و •• لكنه واسع يسمح للجمل بالمرور •

عاد ينظر الى النقب نظرة ساهمة • لماذا تقف هكذا ؟ لا تدرى ان كان هذا الذى حدث حلما مزعجا أم حقيقة واقعة ؟ كنت تحرس دور • حقول القرية • لم تفقد يوما دجاجة • لم يسرق كوز ذرة أو لوزة قطن • على آخر الزمن تأتى « طورة » لصوص ويسرقون جاموستك ؟

ارتطم بصره بحبل ملقى فوق المحراث • لو كانت جاموستى مربوطة فى خصر شجرة السنط القائمة على رأس أرضى ؟ لو فك اللصوص قيدها وهى تدور فى الساقية ؟ لو تسلقوا الجدران وفتحوا باب الزريبة وسحبوها فى هدوء ؟ لكن يأتون • يحفرون نقبا واسعا فى جدار الزريبة ! يتحدونني ؟ لا بد أنهم غرباء • من أين جاءوا ؟ اتخــذوا من العزبة وكرا لهم ؟ وصمة عار لحقت بك يا نجدى •

حطت عيناه بين قدميه • وقعتا على بقعة « جلة » على جلبابه الأبيض الفضفاض • برقت حدقتاه بالغيظ والضعف • تلفت

حوله فى اضطراب . سقطت « الماشــــة » من قبضته المرتعشة . اقتربت زوجته منه . مد يده نحوها . يستنجد بها فى حيرته ؟ .

ـ لقد كان ما كان . لم يبق الا النظر فيما يكون .

لو كان أولادى هنا الليلة ؟ عندما يعودون من الحقل .. ماذا سيقولون ؟ :

« كيف حدث ذلك .. يا سيد الرجال ؟ » .

« ... »

« كلما قلنا لك دع البندقية تتهمنا بالطيش . تقول ما زلتم صغارا » .

« ... »

« أين كانت بندقيتك » .

بندقيتى ؟ دائما معلقة فى كتفى . عندما أنام أضعها بجوار رأسى . علم اللصوص أنها صارت قديمة .. باردة ؟ معهم مدافع عترليوز ؟

آخر مرة قالوا لى وأنا أطاردهم :

ـ الأيام بيننا .. يا شيخ الخفراء .

لماذا لم أقلب هذه العبارة على جميع الوجوه ؟ كثيرا ما حدثنى قلبى أنهم سيعودون فى ليلة ما .. لماذا لم أتخذ للأمر عدته ؟ لو كنت أعلم أنهم سيأتون ليلة أمس .. !

تحلقت الأقدام حوله . كيف علم أهل القرية .. ؟ أخبرهم سعيد ؟ سمعوا صرخة زوجتى .. ؟ طافت عيناه بالوجوه الترابية . لماذا لم ينطق أحد بكلمة ؟ ماذا دهاهم صـــاروا كأشجار النخيل المزروعة فى الجرن ؟ ألم يروا النقب .. الواسع ؟ نظراتهم الصامتة ، تنزع جلبابى عن جسدى . تمزق أعصابى .

اقترب عليش منه :

ـ لا يهمك ·· يا شيخ الخفراء ·

لماذا لم يقل لى : ولا يهمك يا نجدى ؟ ألا يعرف اسمى ؟ شيخ الخفراء صفعت وجهى ·· حجر ·· عليش وجهه أسود · قلبه أشد سوادا · بالأمس كانت زوجتى تغسل اناء نحاسيا · كانت تدعك سطحها الخارجى بالتراب والماء · كان جوف الاناء ينهشه الصدأ الأزرق ·

ربت عبد المعطى على كتفه :

ـ لا تحزن يا نجدى ·· الأسد أسد ولو ··

أسد ؟ نهشتنى الكلاب · لكن لماذا نطق عبد المعطى بهـذه العبارة بالذات ·· الآن ؟ أراد أن يطيب خاطرى ؟ كانت جدتى تقول هذه العبارة · عبد المعطى يعنى ما كانت تعنيه جدتى ·· ؟ :

ـ أين كنت عندما نقب اللصوص جدار الزريبة ؟

من صاحب هذا السؤال الماكر ؟ لماذا لا أرد عليه ؟ الخجل · التردد · الحيرة تخرس لسانى ؟

اتسعت دوامة الضجيج · بدأ يتبادل أهل القرية نظرات خاطفة فيها من العجب أكثر مما فيها من الاستفسار ؟

مازالت السحب الداكنة تسبح على صدر السماء · الغموض الذى يحيط بى يشيع حولى جوا من الرهبة والخوف :

ـ ماذا ستفعل يا شيخ الخفراء ؟

أجئتم الى هنا لكى تلقوا بهـذا السؤال ؟ لماذا لا تسـألوا أنفسكم ؟ :

ـ لو كان فى قلعة ريح ينفضه ·

أشياء كثيرة قاتمة تتكاثف . تتضخم . تملأ أعماقه . وخزه رد عليش ؟ تململ فى وقفته . مست قدمه « الماشية » . نار أشد من لهب المنقد تجتاح دمه . ملأت رأســـه كلمات نارية . لـكن الكلمـــة التى أريـد أن أقذفهـــا فى وجـه عليش لم تأت على لســـانى أأقول له أى كلمة مما يدور فى رأسى ؟ أى كلمة .. ؟ لا . أود أن أطلق الكلمة التى أعنيها . توقظه من غفوته . تمزق صدره الذى يشبه بئر الساقية المهجورة .

لماذا لزم أهل القرية الصمت ؟ لكى يختار كل واحد منهم الكلمات الملتهبة .. ثم يطلقها فى وجهك بلا تردد ؟ بدأت التعليقات الساخرة تتطاير من الأفواه وتتناولك يا نجدى ؟ لم تتعود على سماع مثل هذا القول . ماذا ستفعل ؟ تتكوم داخل نفسك ؟ كيف تنزع ما فى القلب من آهات ؟ توقف نزف كل الجراح !

هتف صوت مبحوح :

ـ ما رأيك يا عبد المعطى ؟

ـ لا رأى لمن لا يطاع .

لماذا مط البعض شفاههم ؟ هز الآخرون أكتافهم ؟ ظننت أنهم جاءوا يقفون بجانبك وقت المحنة . يخففون عنك وقع الكارثة . تغير . تمرد عليك أهل القرية ؟ جحدوا فضلك يا نجدى ؟ أنسوا بطولتك ؟ تناسوا ماقمت به نحوهم ؟ ألم تكن عونا لهم ؟ ألا يذكرون أنك فارسهم المهيب ؟ بطلهم الذى لا يبارى !

ضغط على نواجذه . سوف يعلمون أننى مازلت شيخ الخفراء . سأظل الرجل الذى لا يجرؤ أحد على التحديق فى عينيه . مازال فى صدرى من الشجاعة انفاسها . سأحملهم على أن ينهضوا لى فى المجالس . يهشون لى ويجاملوننى كما كانوا يفعلون قبل اليوم . لكن كيف بلغت بهم الجراة أن يطلقوا ألسنتهم بما لم يكونوا من

قبل يجرؤون عليه ؟ اللصوص فتحوا فى حائط الزريبة ثقبا من الألم والحزن والسخرية ٠٠ !

الرعب يتسرب الى صدره قطرة قطرة ٠ فى المساء كان ابنى الصغير يلهو بقطعة اسفنج مبللة بدم دجاجة ذبيح :

ـ ألم تسمع صوت الفئوس وهى تحفر الحائط ؟

ـ فى الحقيقة أننى ٠٠

لماذا لم أكمل عبارتى ؟ ادرك أهل القرية أننى أودعت كل آلامى فى كلماتى القليلة ٠٠ !

كنت أود ألا يروا ضـــعفى ٠ لكن لماذا لا ينقطنى عليش بسكوته ؟ لا يلوك لسانه سوى كلمات الشماته ؟

أحس فى أعماقه شيئا يمزقه ٠ سقطت نظراته فى شقوق الجدار ٠ ستملؤها الثعابين ؟

دار وجهه بعيدا عن النقب الواسع ٠ أشجار النخيل تقف ساكنة ـس قدميه فى جوف التراب ٠ عبث فيه بأصابعه ٠ ماذا يحمل الغد فى طياته ؟ سوف يحتقرنى أهل القرية ؟ التفكير فى الغد على هذه الصورة عذاب جديد يضاف الى آلامى القديمة الكثيرة ؟ ٠

تسلل الى مسمعه هديل الحمام من جوف البرج ٠٠ غدا ينسى أهل القرية حكاية سرقة جاموستك ٠

لم يبق منها الا فكاهة عابرة للتندر بها فى مجالس المصاطب والأجران ؟ لكن النقب الذى صنعه اللصوص واسع !

سحب بصره من بين الخطوط التى رسمتها أصابع قدميه فى التراب ٠ حط على ظهر يده ٠ مازال أثر جرح قديم عميقا رغم سنوات طويلة ! لم يغرب عن ذهنى ليلة أن حاول اللصوص سرقة

دكان السيد رزق . كانوا ثلاثة . تبادلنا اطلاق النار . على الرغم من أننى تقهقرت أمامهم . لم أمكنهم من سرقة باكو معسل . **رحت أنفخ فى صفارتى النحاسية وأنا أجرى فى جنون ويدى تنزف دما :**

ـ أين كانت بندقيتك .. يا شيخ الخفراء ؟

ماذا يبغى عليش من وراء أسئلته .. هذه ؟ ظلت بندقيتى تطارد اللصوص حتى أمس القريب .. كان اسمها مثار فخر لكل واحد من أهل القرية .

زمجر خليل رضوان فى وجه عليش :

ـ أفصح عن نواياك .

ـ اننا نتساءل .

ـ بماذا سينفع التساؤل ؟ لا نجيد الا السخرية ؟ لماذا لا نتفق على عمل أو نتخذ خطوة ايجابية ؟

تشعبت وجهات النظر . رفع خليل يديه . حط الصمت :

ـ بدلا من أن تجعلوا من أنفسكم قضاة وتتطاولوا على الرجل بالسنتكم . لماذا لا تقفون بجانبه ؟ أنا على يقين أن اللصوص لن يتركوا لقريتنا متنفسا من الراحة . الأمر أخطر من ظواهره . اليوم ضرب الرجل . ماذا سيفعل بالنساء غدا ؟

لماذا سكت أهل القرية . أدركوا مغزى قول خليل ؟

انشق الصمت الترابى عن صوت خشن :

ـ ماذا نفعل ؟

قلب خليل كفيه :

ـ سبحان الله .. ألم أطرح سؤالى بكل وضوح ؟

ـ نعم ولكن نود أن نقول ٠٠

ـ أنتم رواد أقاويل ٠

أطبق الصمت من جديد ٠ بم أفسر نظرات أهل القرية المشتتة ؟ لماذا ينظر بعضهم نحو السحب الداكنة ؟ يتوجسون من المجهول الذى يحدق بهم ؟ فهموا أنهم سيحرمون من أعز ما يملكون؟

كانت الطمأنينـــة ترفرف على القريـة ٠ لو وقفـوا بجانبى اليوم ٠٠ ! سأتعقب اللصوص فى عقر دارهم ٠ أسحق رءوسهم ٠

تعلقت عيناه بالشفاه اليابسة ٠ لماذا أطرقوا برءوسهم ؟ لم يتخذوا قرارا ؟ لم يتفقوا على رأى ؟ كلمات خليل فى حاجـة الى وضوح !

أطل وجه الشمس من بين فرجات السحب ٠ انسل عبد المعطى من بين الحلقة البشرية ٠

عندما يسقط المطر تنحدر سيوله الى الشارع ٠ تندفع الى داره الواطئة ٠ لم يستطع أن يمنعها من اقتحام بيته ٠ صار صحن داره بركة ماء ٠ ماذا سيفعل اللصوص بعد أن عرفوا دارى ؟ عيونهم فارغة ٠ لن تكون هذه المرة الأخيرة ؟ ماذا سيفعلون فى المرة القادمة؟ سيلقون « فتيلا » مشتعلا فوق سطح دارى ؟ جاءوا من قرى بعيدة مبعثرة ٠ حطوا كالذئاب على العزبة ؟

انزلقت حبات العرق على ظهره ٠ لماذا تبدو كالثلج ؟ منذ قليل أعلنت زوجتى وأنا أصب الشاى من البراد أنها تحب الشاى ساخنا ٠ الأشياء الساخنة تلسع اللسان ٠ تكوى الحلق ، بدد الصمت خوار بقرة ، ماذا سيفعل اللصوص بجاموستى ؟ سيذهبون بها الى السوق ٠ يقف أحدهم كالدلال :

« هذه جاموسة شيخ خفراء قرية ٠٠ » ٠

أأذهب اليهم .. ؟ أدفع لهم عشرين جنيها ؟ ثلاثين .. ؟ أنا أخضع .. ؟ أنا أستعطف و .. ؟ أدفع « حلوان » ؟ شيخ الخفراء يشترى الذل ؟ لو فعلت ذلك للحق بك العار .

عاصت أصابع طبال القرية تحت طربوشه الأجرب :

ـ اذا كانت جاموسة شيخ الخفراء قد سرقت من داره . ماذا سيفعل بنا اللصوص ؟ هل سيدعون لنا اطمئنانا فى صباح أو مساء ؟

لماذا نطق طبال القرية بكلمة شيخ الخفراء منغمة ؟ لم أعد أطيق سماعها ؟ لم لا يكون حسن النية ؟ كل كلمـة تتناثر من الأفواه أصبحت تعنيك .. !

هبت نسـمة باردة . لمـاذا ينظر أهل القرية بعضهم الى بعض ؟ يفكرون فى سؤال طبال القرية ؟ هناك اجابة صريحة أفضل مما لمـح به ؟ يتردد أهل القرية بين الوقـوف والانصراف ؟ لو سكتوا سيصبحون سخرية العب كله . لن تصبح القرية صاحبة العزة والصولة . لماذا لا يستأصلون الشر قبل أن يستفحل ؟

هتف صوت رفيع :

ـ ماذا ترى يا طبال القرية ؟

ماذا يرى ؟ ما نطق به كان كافيا . ماذا يضيف الى ما قال ؟

انفرطت حلقة الأقدام . كيف يتفرق أهل القرية دون أن .. ؟ لماذا كانت تبدو وجوههم جامدة .. بلا انفعال ؟ الأمر لا يهمهم ؟ ما حدث لا يعنيهم ؟

تساقطت دموعه . ملأت حلقه . شعر بالحاجة الى الحديث مع أى انسان . التصق به خليل رضوان . رفع يده الى عينيه ليمسح دمعة :

ـ الصبر يا شيخ الخفراء ٠

ـ ماذا بقى لى ٠٠ حتى أتحمل وأصبر ؟

ـ لا نملك معك الا الرثاء لأنفسنا ٠

تقدم طبال القرية ٠ طبطب على كتفه ٠

نظر نحو مئذنة المسجد ٠ كنت تسير فى شوارع وأزقة القرية مرفوع الرأس ٠ ماذا ستفعل بعد اليوم ؟ لماذا لا تذهب الى اللصوص و ٠٠ ؟ كيف ٠٠ لا أحد رأى ولا أحد سمع ٠٠ لكن ماذا تقول لأهل القرية عندما ٠٠ ؟ :

« كانت الجاموسة مع أولادى فى الحقل » ٠

كيف أعلل وجود النقب الواسع فى جدار الزريبة ؟ هل سيسكت اللصوص ؟ أفواههم أوسع من النقب الذى حفروه ٠٠ تصبح حكاية أخرى حديث كل دار ٠ أنشودة كل شاعر ! أليس هناك حل بدلا من الانحناء ؟

تراقصت أمام عينيه شجرة السنط القائمة على رأس أرضه ٠ عندما أصابها الذبول ٠٠ ماتت ٠٠ ظلت شامخة ٠

ميلاد رجل حي ..!

ظل الذباب يطن قرب سقف القاعة الواطئة . خمدت أصوات الأطفال فى الحارة . حك ظهره فى الحائط . أين ذهبوا ؟ الى الخيمة الكبيرة المقامة فى جرن العمدة ؟

أخذت الزوجة تصف له كيف خرجت القرية وقابلت المحافظ بالهتاف والتصفيق والزغاريد لم يكن يعنيه فى شىء السماع أو التعليق على حديثها . كان مشغولا بحل عقد الخيط ليرتق ثقوب جلبابه الممزق .

جاءته دقات مستعجلة كادت تقتلع الباب الخشبى المتداعى . رجع الأطفال ؟ ماذا يريدون ؟ ألا ينتظرون حتى .. ؟ سوف يمزقون جلبابى . كم مرة فعلوا ذلك ؟ خمس مرات . عشر ؟ أليس فى القرية أحد سواى يسخرون منه ؟

زمجرت زوجته . رمته بنظرة من ركن عينيها . تنهدت . لوت ظهرها . التقطت عصا . ماذا ستفعل ؟ ستضرب الأطفال ؟ سوف يشتد سخطهم على . ربما رجمونى بالحجارة .

عادت طوحت بالعصا فى ركن القاعة :

ـ شيخ الخفراء .

انتفض واقفا . تلفت حوله . حشر جسده الهزيل العارى فى جلبابه .

ـ م .. م .. ما .. ماذا يريد ؟

ـ لا أعرف . سأل عنك . أخبرته أنك موجود .

ـ ولكن ..

ـ هل كنت تريد أن أنكر وجودك ؟ ربما دخل القاعة .. ماذا يكون موقفنا لو .. ؟

جر قدميه المرتعشتين :

ـ تفضل .. تفضل يا شيخ الخفراء .

انتزع من تحت شاربه الكثيف ابتسامة خفيفة فيها شىء من السخرية :

ـ بحثت عنك فى كل مكان تجلس فيه . أخيرا جئت الى دارك .

أيسمى جحرا رطبا مظلما فى حارة مسدودة دارا ؟ لماذا بحث عنى فى كل مكان ؟ :

ـ هيا معى .

الى أين ؟ لماذا لا أسأله ؟ لو سألته ربما غضب و .

ملأت ابتسامته وجهه الصقرى :

ـ سنذهب الى الخيمة الكبيرة . وسأقدم اليك شيئا من الحلوى .

ماذا سيقدم لى ؟ حبة كرملة ! قرص نعناع ؟ ما سر تلطفه معى ؟ عهدى به رجل قاس . كلما قابلنى صفعنى على قفاى . لدغت عصاه ظهرى .

دس يده فى جيبه . قدم اليه قطعة سكر . قلبها فى يده . انفرجت شفتاه عن ابتسامة بلهاء . قذف بقطعة السكر فى فمه . السكر فاكهتى والحلوة الوحيدة التى أتذوقها :

ـ حضرة العمدة طلب منى أن أبحث عنك .

لماذا أرسل العمدة فى طلبى ؟ ما سر حضور شيخ الخفراء بنفسه ؟ لماذا لم يرسل لى خفيرا .. ؟ الأمر مهم ؟ ترى لماذا خصنى العمدة بهذا الشرف دون الآخرين ؟ أنا فى تقديره أحق الناس .. ؟ أولى من .. ؟ لكن لماذا يهتم بى اليوم بالذات ؟ حياتى كلها اهمال وضياع . طول عمرى انسان تافه . أحظى فقط باحتقار الكثير من أهل القرية . يشرفوننى بصفعة على قفاى . ركلة . بصقة . جسدى نحيف . ساقاى كعودى الحطب . يسموننى أبا فصاده .

توقف . جـــذبه شيخ الخفراء من كتفــه العظمى . تمزق جلبابه :

ـ قرب . لماذا وقفت ؟

كيف تقابل المحافظ حافى القدمين . ممزق الثيـاب ؟ لو انتظر شيخ الخفراء قليلا لأتممت رتق الثقوب . لكنها كثيرة . كلما أصلحت ثقبا أطلت ثقوب أخرى . ربما رق قلب المحافظ وأعطاك جلبابا من الكستور . كستور ؟ المحافظ سمع عن الكستور ؟ ماذا ترك لكثير من أهل قريتنا ؟ المحافظ لا يعرف الا الصوف والسكروته والحرير . لو منحك جلبابا من الصوف ! انه خشن . سوف يلتصق بجلدك الخشن . لكنه يجلب الدفء الى جسدك المقرور . تلبس جلبابا من الصوف وتسير فى شوارع القرية ؟ تصبح أبا على ؟ ماذا

سيقول أهل القرية : ماذا لو جذب العيال ذيل جلبابى الصوفى . تعلقوا به ؟

نظر الى ذيول جلبابه الأزرق الممزق . وقعت عيناه على قدميه الحافيتين . سوف يراهما المحافظ ؟

يبتسم :

« يا عمدة .. هات له حذاء »

« الحذاء يؤلم قدمى . أريد بلغة »

وضع شيخ الخفراء يده على كتفه :

ـ لو طلبت منك شيئا لابد أن تنفذه .. مفهوم ؟

لماذا يصرخ فى وجهى هكذا ؟ أيظن أننى أطرش ؟ ما هـذا الشىء الذى سيطالبنى به ؟ طول عمرى أنفذ أوامر الصغير والكبير فى القرية بلا نقاش . لم أذكر يوما أننى جادلت أحدا . تذمرت أو اعترضت على شىء . كيف أخالف كلام شيخ الخفراء ؟

مرت بجانبهما امرأة تحمل صينية نحاسية فوقها فوطة بيضاء . تفوح منها رائحة حساء . لعق شفتيه . لو وجدتهم فى الخيمة الكبيرة يأكلون . ؟ لن أنتظر حتى يدعوننى الى الجلوس .. اذا لم أجد طعاما سوف أظفر بسيجارة فاخرة تعمر مزاجى .

وقف أمام الخيمة الكبيرة يتأمل النقوش المتعانقة فى تكوينات هندسية متكررة :

ـ فيم تفكر ؟

ارتجف جسده أأخاف من شيخ الخفراء حتى وأنا أفكر ؟ يحرم على .. حتى التفكير ؟ :

ـ اياك ألا تنفذ ما يطلب منك . لقد حذرتك . أسامع ؟

لماذا يكرر كل دقيقة تحذيره ؟ يخشى أن أنسى ؟

اقترب شيخ الخفراء من المائدة الكبيرة التى تتوسط الخيمة · ابتسم العمدة · مال على أذن المحافظ · ماذا قال له ؟ ماذا يهمنى ··؟ لكن لماذا يطيل المحافظ النظر الى ·· ؟ حدثه العمدة عنى ·· ؟ يفكر فى منحى جلبابا من الصوف وبلغة ؟

ضم مزق جلبابه على كتفه العارية·نكس رأسه·راحت عيناه تنظران الى قدميه العاريتين أريد أن أجذب نظر المحافظ نحوهما ··!

وقف شيخ الخفراء أمام الميكروفون · جرت سبابته على شاربه الكثيف :

ـ والآن جاء وقت الضحك والمرح ·

لماذا غمز لى بعينه ؟ سيطلب منى أن أقلد القرد وهو ينام نوم العجوز ؟ وهو يعجن عجين الفلاحة ؟ سيحضر بعض أطفال القرية لألعب معهم ؟

أقبل أحد الخفراء يسحب حمار العمدة · لماذا يبتسم ؟ يا سلام لو طلب منى أن أركبه ؟ أجلس فوق البردعة المغطاة بالقطيفة الخضراء وأمسك اللجام المفضض ؟ أهز رجلى ·· ! سوف تتطاول رقبتى · تنطح رأسى السحاب · أتمنى أن يرانى أهل القرية و ···

وقف الحمار بجانبه · جرت يده على ظهره « الملظلظ » نامت على رقبته الناعمة · زحفت الى جسده الهزيل · استقرت على قفاه الخشن · خفير العمدة الخصوصى يصحب الحمار كل يوم الى الترعة· يغسل ظهره و ·· بصابون معطر · منذ متى لم أغسل جسدى بقطعة صابون أسود رخيص ·· ؟ أسبوع ·· شهر ·· ؟

أحس بشىء يجذبه من الخلف · ماذا يفعل الخفير ؟ يريد أن

ينتزع جلبابى ؟ كيف ٠٠ ؟ اننى ألبسه على اللحم · لو فعل سأقف عاريا وسط الخيمة ؟

نظر وراءه - قوس حاجبيه · ما هذا الذى فى يد الخفير ؟ ذيل عجل ؟ ماذا سيفعل به ؟

سرت الهمسات الضاحكة · رفع شيخ الخفراء يده · هبط الصمت :

ـ أرجو الانتظار · سنضع طرف النساف على رقبته والطرف الآخر على رقبة حمار حضرة العمدة · ثم سيجريان وسط الخيمة ·

احساس غامض يتمطى · يتحرك · يجتاح صدره العظمى · ما هذا ؟ ضيق ؟ مهانة ! ملل ؟ تمرد ؟

لماذا توقف ذهنك عند الكلمة الأخيرة ؟ لماذا تعلقت بطرف لسانك ؟ ماذا تفعل ؟ تتذوقها ٠٠ !

تراجع خطوتين · صاح الخفير :

ـ اثبت يا حمار ·

حمار ؟ أنا حمار ؟ كل القرية تعرف أننى ربما كنت أبا فصادة ٠٠ أى شىء الا أن أكون حمارا ·

امتلأت الخيمة بالضحك · التهب وجهه · دمى يغلى فى عروقى الصدئة ؟ كل مرة أرى الأفواه تنطلق منها الضحكات · لماذا تبدو بشعة هكذا ؟ ستبتلعنى !

وضع يده على صدره · يمنعه من الانفجار ؟ كيف يهزأون منك ؟ صرت لعبة مسلية ؟ طول عمرك لعبة ٠٠ لماذا ٠٠ ؟

ارتعش لسانه فى فمه · لماذا لم ينطق ؟ ألم أجد الكلمة التى ٠٠ ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ أنفجر فى وجوه الحاضرين ٠٠ أصرخ · أوقفهم عند حدهم ! ماذا ٠٠ تقول ؟ تصرخ !

نهض الخفير واقفا . فرك يديه . يعلن عن انتهائه من أداء مهمته ؟ ماذا فعل ؟ وضع ذيل العجل .. ؟

كور قبضته . ماذا ستفعل بالضبط ؟ لا أعرف . كل ما أريده أن أوقف هذا الطنين الذى يملأ أذنى ورأسى . أهدىء ضربات قلبى ! أطفىء النار المشتعلة فى دمائى . لكن كيف ؟ أأعترض على هـذا السلوك نحو .. ؟ لكن نظرات شيخ الخفراء تشل كل شىء فى جسدى . تجعل الصوت الذى يصرخ فى أعماقى ضعيفا .. مسلوب الارادة .

داعب الخفير ذيل العجل بيده . أمسك بكتفه . طلب منه أن يدور حول نفسه . ماذا يبغى من وراء هذا ؟ يريد أن يرى كل من بالخيمة الذيل المعلق بظهرى .. ؟

انطلقت الضحكات مجلجلة . تطاولت ألسنة اللهب فى صدره . جذب الذيل المربوط بجلبابه . طوح به . استقر عند قدمى شيخ الخفراء . ابتسم . أبعدت ثعبانا كاد أن يلدغنى ؟ ثرت من أجـل كرامتى ؟ كرامتك ؟ أنت لك كرامة ؟ لم لا .. ألست انسانا بنى آدم ! حط السكون . تشابكت النظرات فوق جسده . هدأت خفقات قلبه .. طائر يرفرف فرحا .. كيف فعلت هذا ؟ يدى هى التى .. ؟ لا . لا . جاءت زوجتى وقذفت بالذيل . كانت دائما تقول لى :

ــ الى متى ستتحمل اهانات أهـل القرية ؟ لـماذا يسمونك « مسخرة » ؟ كيف تسمح للأطفال أن يجذبوا ذيل جلبابك ويركبون على كتفيك ؟ أصبحت الحمار الذى يركبه العيال مجانا ؟ لو صرخت أو لوحت فى وجوههم بقبضتك مرة واحدة .. كانوا يخافون منك .. ابتعدوا عنك .

التقت عيناه بعينى شيخ الخفراء . لماذا يطيل النظر اليك ؟ يذكرك بأنه حذرك ؟ أين أهرب من عينيه المتربصتين ؟

وضـع الخفير الناف على كتفه العظمى · خيل اليه أن نارا لسعته · أزاح الناف بعيدا ·

زمجر الخفير :

ـ أتدفعه بعيدا ·· ؟

ـ نعـم ·

خرجت الكلمة كالقنبلة · أنا الذى ألقيت بها ؟ لا · لم أتكلم · لكنه صوتى ·

عشش السكون · جذب معه سحب الدهشة والغموض · ترك شيخ الخفراء الميكروفون أسرع نحوه ·· زار :

ـ كيف تجرأت وأبعدت الناف بعيدا عن كتفك ؟

قال من بين أسنانه :

ـ لست حمارا ·

تقلص وجه شيخ الخفراء تطايرت من عينيه ومضات من نار :

ـ ماذا تقول ؟ لست حمارا ؟

لماذا ينظر الى هكذا ؟ لماذا لم يرتجف جسدى الهزيل ؟ نسيت نظرات شيخ الخفراء النارية ؟ لم تعد ترعبنى ؟ لم أعد أذكر يده الثقيلة وهى تهوى على قفاى ؟ أكان لى كل هذه الشجاعة ؟ أين كنت أخفيها ؟ كيف لم أبصرها منذ زمن بعيد ؟ :

ـ لا تخجلنا أمام المحافظ ·

لماذا لجأ الى اللين ؟ أدرك أن العنف لن يجدى معى ؟ :

ـ عيب أكمل اللعبة ·

عيب ؟ ناظر المدرسة الابتدائية الرجل الوحيد الذى صرخ فى وجوه بعض أهل القرية عندما رآهم يحيطون بى · يسخرون منى :

ـ عيب . عيب يا جماعة . كيف تهزأون من رجل له مشاعر وأحاسيس ؟

كور شيخ الخفراء قبضته :

ـ ستقوم بأداء اللعبة .. يا حمار أم لا ؟

لماذا ملأ صوته بالوعيد ؟ نفد صبره ؟ ماذا سيفعل ؟ سيضربنى ؟ سيقصف رقبتى .. ؟ فليفعل ما يريد .. المهم أننى لن .. :

ـ ماذا قلت .. ؟

نفخ صدره . رفع رأسه . ترك لوجهه المتحجر تعبير الرفض .. الباتر .

ماتت الزغاريد على الشفاه المرتجفة . وثبت الدهشة الى العيون ، استحال العرس الى مأتم ؟ كيف تسلل الى القرية ؟ خدع كلابها وأفلت من أنيابها ومخالبها ؟ لم يجد بابا مفتوحا سوى باب دارى ؟ حلت على لعنة السماء الغاضبة لأننى لم أعـد أصلى الفجر وأصبحت يدى تمتد الى زرع جيرانى ؟ أم أن الغرور ركبنى وصار الضعفاء هدفا لصفعات يدى !

تطلعت اليه زوجته . فى عينيها اللتين بلون ماء النيل كلمات حبيسة رعناء .

قال أبى فى الشتاء الماضى :

ـ رجفة الجسد تجلب الدفء الى الكيان المقرور .

لو كنت بمفردى الآن لأطلقت لجسدى العنان . ليخفف من ضغط أصابع الخوف الفولاذية التى تصهره . لكن جيشا من العيون المتوثبة تحاصرنى . السياط النارية المتحفزة فى الأفواه تريد أن تتلقفنى ؟

أشاح بوجهه • ارتطم بصره بالقط الأبيض الرابض بجوار ابنته الصغيرة • زأر • أسد غضوب •• شلل الرعب يجمده في مكانه • ماذا أفعل ؟ يجب أن أكون حذرا • لو حركت يدى أو نبست يقول ربما أنشب مخالبه في وجه طفلتي النائمة • أو انتزع عينها • لو استيقظت من نومها ؟ تبدو في رقدتها • ملاكا حالما • الم ينبئها قلبها الصغير بحلول الكارثة ؟

ذات يوم قالت جدتي :

ــ الوحوش لا تؤذى الانسان وهو نائم •

لكن هذا قط • يسرى الخداع والغدر في دمائه • كف عن الزئير • بدت في عينيه المتوهجتين نظرة الوحش الذى اطمأن على الفريسة • وضع كفه الكبيرة على صدر الطفلة الصغيرة •• فارس يرتكز على مقبض سيفه •• شهقت الزوجة شهقة مشحونة بالذعر :

ــ ابنتى !

انتفضت الطفلة النائمة ، أيقظتها صرخة أمها ؟ أحست بمخالب القط على قلبها ؟ • تطلعت اليه بعينين ذاهلتين • داعبت يدها الحريرية قدمه الشوكية • كشر عن أنيابه • انفجرت في البكاء •

قفز الخوف المجنون الى مقلتيه • وجد نفسه يتقدم خطوة • نهض القط • في مخالبه وأنيابه تحفز الصياد اليقظ • مشاعر غريبة لا تكف عن التسرب الى أعماقى • ترجفها • غرست فيها أشواك الرعب ؟ :

ــ سنقف هكذا مكتوفى الأيدى ؟

ماذا أفعل ؟ يجب أن أوارى خوفى أمام الحاضرين • والا ستكون فضيحة بجلاجل في أنحاء القرية • لو تقدم أحدهم وطرد القط من المندرة ؟ لكن الطفلة ابنتى و •• القط في دارى !

الخوف · الذعر أصبحا لا فائدة منهما ؟ لا حل للموقف الا بأن يقتل القط · كيف ؟ تقدم خطوة أخرى · قوس القط ظهره · برزت مخالبه · استأنف مواءه · حادا لافحا · تدفق من حدقتيه حمم :

ــ لماذا لا نلجأ الى الحيلة ؟

الحيلة تخرج الثعبان من الشق · لكن القط ماكر · لو غفت عينه ؟ يعلم أننى سآخذه على غرة أو بطريقة أخرى ؟ لو غادر المندرة فى هدوء ؟ كثيرا ما وجدت بعض ثمار النخيل على الأرض دون مشقة · لكنها ملوثة بالتراب أو يفوح منها العفن · لم أتذكر فى يوم ما أن سقطت فى راحتى ثمرة اشتهيتها دون أن تقطفها يدى أو قذفت نحوها حجرا · لكى يغادر القط المندرة لابد من كلمة أو حركة أو جهد ولو ضئيلا ·

رأى طفلا يقضم كسرة خبز · انزاح ستار الضباب عن ذهنه· همس فى أذن زوجته بكلمات خفيضة · عادت وفى يدها رغيف · قذف به نحو القط · لم يلق اليه التفاتا · انطلقت فى صدره عاصفة ثلجية · ارتسمت على وجه زوجته الأسمر ظلال الحيرة والفزع · لم يعد يسمع صراخ طفلته · أخذ كل شىء أمامه يشحب :

ــ هل نحضر كلب سامى ؟

ازداد مواء القط حدة · يعرف كلب سامى ؟ يتوعد الطفلة ؟· الى متى سأظل صامتا ؟ الطفلة بين أنياب الخطر · لماذا لا أرفع صوتى بصرخة قد تزحزح ارادته ؟ أليس لى أنا الآخر فم ؟ بأى حق يغافلنا ويتسلل الى المندرة ثم يضع كفه على صدر الطفلة ·· رهينة ؟ ماذا يبغى ؟ انتهز فرصة انشغالنا بعرس ابنتى و ·· ؟ لكن ربما أغضبته صرختى · لا · لا داعى للعنف · سأطلب منه فى صوت هادىء هامس أن يغادر دارى :

ــ بس · أخرج ·

زأر القط ، تحفز للانقضاض ، تراجعت خطوتين ، ما زال سؤال زوجتي يطل من عينيها ، لو جاء كلب سامي ربما انقلبت المندرة الى ساحة يملؤها النباح والمواء ، قد تسقط اللمبة السهارى وتشعل النار فى الدار ، ثم تنتقل من بيت الى آخر حتى تأتى على دور القرية ، وان لم تمت الطفلة حرقا ستقتل بين مخالب القط وأنياب الكلب ، أو تموت رعبا ، ثم ماذا أفعل لو طرد كلب سامى القط من المندرة أو قتله وطاب له المقام مكانه !؟

يجب أن يعمل عقله ، يفجر الأفكار والخطط ، لكن الخواطر الثقيلة المتناقضة تملأ رأسه ،

هتف احدى النسوة :

ـ قد يكون القط جائعا ، هل أحضر له سمكة ؟

قذفت بالسمكة على مقربة من القط ، حرك شواربه الفضية ، تراقصت الفرحة فى عينى ، سوف تشغله السمكة ، سأغافله وأنتزع الطفلة من بين مخالبه ،

تقلصت البسمة على شفتيه عندما أشاح القط بوجهه عن السمكة ، ماذا يريد ؟ أليس السمك غذاءه المفضل ؟ ظن أن هناك شركا ؟

قال أحد رجال القرية :

ـ نحضر له فأرا ؟

فأر ؟ كيف غابت عن ذهنى هذه الفكرة ؟ الفأر سيتواثب أمامه ، لن تساوره الوساوس ، لكن الفأر عندما سيلمح القط سينطلق فى جنبات المندرة ، قد يروغ منه ويختفى فى أحد الشقوق أو بين غرارات القمح ، ربما كانت أنثى تضع قبيلة من الجرذان ، تعمل بأسنانها المنشارية فى كل ما يصادفها فى البيت ،

ما العمل اذن ؟

اقتربت منه زوجته :

ــ أحضر لك الفرقلة ؟

تريد أن ألجأ الى العنف ؟ لم لا ؟ . فشلت معه كل طرق اللين . بلغت مرحلة اليأس الكامل المطبق . لم يعد أمامى الا أن أتقدم نحوه . ليكن ما يكون .

شدد قبضته على يد الفرقلة . رفعها . وثب القط جانبا . كادت الضربة أن تشق صدر الطفلة . أطلقت صرخة مشروخة . أمسك الغضب بخناقه . ارتفعت الفرقلة مرة أخرى . قفز القط نحوه . فلتت من حلقه صرخة ملتاعة . سقطت الفرقلة من يده . اندفع الحاضرون من باب الدار .. نحل سقطت خليته بغتة .

بكت العروس . راحت تندب حظها العاثر . فى عينى القط ظلال غريبة . قحة لا يخرسها الا الرصاص ! دهاء الثعالب ؟ سم الأفاعى ! . أخـذ يلهو بالفرقلة على مقربة من الطفلة المذعورة . المستفسرة . شنفت أذنيه شخشختها ؟ يهزأ بى ! يسخر منى ! استمرأ اللعبة !

خنقه الغيظ . لا بد أن يسترد الفرقلة . لو رآها أحد مع القط .. ؟ قد يطلع عليها أهل القرية . محال أن يتركها فى كفه . سيدق رأسه . سيظل يدقها حتى تتحطم جمجمته . جاءه صوت دقات على الباب . قدم اليه أحد الجيران نبوتا طويلا . زحفت على شفتيه ابتسامة عريضة . ابتلعت وجهه . منذ قليل استنكر هذه الفكرة . أقصـــاها عن خاطره . لكن الآن اســتطعمها . شعر بحلاوتها .

انتفض القط كالثعبان . أطبق على نهاية النبوت بكفيه الكبيرتين قبل أن يمس صدره .

ترامى الى مسمعه صوت العروس :

ـ يبدو أننا ننفخ فى رماد .

أريد أن أسـأل . ما العمل ؟ . زوجتى ترمقنى من تحت اهدابها . انكمش السؤال فى صدرى مهزوما . لو نطقت به ربما قالت لى : انك لا تجيد الا الجعجعة والردح .. اقتربت منى العروس :

ـ لماذا لا نرسل الى مخلوف ليحضر بندقيته و ... ؟

مخلوف أكل قلب ذئب . قلبه ميت . بندقيته المقروطة نسج أهل القرية حولها الأساطير ، لكن ربما أخطأ وأصاب الطفلة . ذات يوم كان الثعلب يشن هجماته على القرية . يختطف الدجاج والبط والأوز . تربص له مخلوف خلف أحد أكوام السباخ . أطلق عليه النار . بدلا من أن يصيبه قتل حمارا كان واقفا فى الجرن .

الطفلة تنظر اليه . عيناها الوادعتان مملوءتان بالدموع والذعر والتوسل . ماذا أفعل ؟ على بعد خطوات منى ولا أستطيع أن أتقدم ؟

فى عروقه تتدفق دماء ثائرة . لكنها مشـلولة بالجمود . لا يملك الا الخوف . لم يعد أمامه الا أن يرجو القط . يستعطفه . لكن الاستعطاف سلاح العاجز . قد يزداد القط صلفا وغرورا .

هتفت زوجته :

ـ الى متى سنظل صامتين ؟

ـ ماذا أفعل ؟

كنت أخشى أن أواجهها بهذا السؤال . كيف سقط من بين شفتى ؟ كان حبيسا بين ضـلوعى . جاهدت طويلا على ألا يغادر

صدرى الواجف . ماذا ستقول زوجتى الآن ؟ ستتهمنى بالعجز والجبن ؟ ستسقطنى من عينيها !

رمته بنظرة جانبية صامتة . بلون ضفيرتها الفاحمتين . لوت ظهرها . عادت وفى يدها كرة من القماش مشتعلة . قذفت بها نحو القط . أطلق مواء مبتورا . وثب من المنور الى صحن الدار . تاركا وراءه الرغيف والفرقلة و .. و .. وشعيرات ثلجية .

الصدى يغوص فى الوحل

حطت العيون الساخرة على وجهه · أطبق جفنيه على الدموع التى نضحت بها عيناه :

ـ لقد حذرته ·· لكن شـــيخ الخفراء كان أسرع اليه من الحذر ·

من صاحب هذا الصوت الذى يعكره التشفى ؟ لماذا جاءت كلماته واهنة باهتة ؟ يتحدث عبر سلك تليفونى بعيد ؟ يخشى أن ·· !

الشمس ·· مسامير متوهجة تنفذ الى الجلد · اختلج جسده · احتك ظهره بجذع شجرة السنط · انسابت من بين شفتيه آهة مكتومة · امتزج فيها الألم بالغضب ؟ انصرف أهل القرية عنى ؟ لم يعد أحد يعيرنى أدنى اهتمام ·· ! :

ـ باع العمدة القرية لمخلوف ·

استقبلوا كلامك بفتور · لم تجد آذانا تصغى اليك · ترمى فيها ببذور مخاوفك · كانت لديك رغبة صادقة لايضاح الحقيقة · انها واضحة · لكن أهل القرية ينظرون اليها بعيون من زجاج ·· !

ونزلقت خيوط الدمع على خديه ·· ضيع على شيخ الخفراء الفرصة :

ـ اعقل يا رضوان ·· ستعود الى وجع الدماغ ؟

ـ أكل مخلوف بعقل العمدة حلاوة ·· جاء ليحول قريتنا المظلمة الى مدينة متلألئة الأنوار · يقلب حزنها فرحا · ضيقها فرجا · يغير واقعنا ·· لكنه افسد علينا حياتنا ·

ـ لو سمعت مثل هذا القول مرة أخرى ·· سوف تذهب فى ستين داهية كما ذهب حسانين أبو المجد وبرهام الدكر ·· أسامع ؟

أفلتت من مخالب الحر نسمة عطنة · نريد أن نتنفس فى جو غير موبوء نتن · تاقت نفوسنا الى هواء منعش يجدد سراديب الظلام التى عشثت ونسجت خيوطها باحكام :

ـ ياشيخ الخفراء وضع مخلوف يده على كل شىء فى القرية · لم يبق الا أحلامنا ·· سوف يخطفها ·

ـ قلت لك أسكت ·· أنت بالع راديو ؟

ـ مخلوف وأقاربه فى قريتنا كاللعنة ·

ـ أتريد أن تفتح موال النكد ؟ ستدفع ثمن طول لسانك ؟

ـ جيبى خال ·· لا يستر جسدى سوى جلبابى الممزق · مرض زوجتى جعلنى أبيع كل ما أملك ·

ـ اذا لم تسكت سأضربك بالبلغة ·

بلغة ؟ الله يرحم أيام كان يمشى حافى القدمين ··

تنهد · كيف تسللت الى نفسك الكآبة ؟ وقعت عيناه على حائط ميضة الجامع الذى تسرب اليه النشع ·

زحف بصره نحو دكان مخلوف :

ــ أسمعت ما قاله رضوان ... ياشيخ الخفراء ؟ قال أنا بعوضة ؟ أننى سأجلب الخراب الى القرية .

ــ لا تلق التفاتا الى قوله . انه يهذى . كان أبوه مجنونا .

الغصة فى الحلق .. شوكة جارحة .. كان أبى أعقل عقلاء القرية . رجل مسموع الكلمة .

ارتفع التصفيق والغناء . انطلقت بعض النساء عاريات فى شارع المسجد الموحل . لحق بهن عشرة رجال تجردوا من ملابسهم . سقط الجميع فى الوحل . علت الضحكات . القهقهات . تفجرت من حوله كالسياط . وصل الأمر الى حد .. ؟ مخلوف وأقاربه وعفيفى و .. دمروا فى نفوسنا أشياء نحن فى أمس الحاجة اليها . الرجال فى قريتنا مثل النحل الذى أصابه الدوار . النساء فراشات تحوم حول النار .. ماذا يدخر المجهول فى أحشائه لقريتنا .. !

أقبل طبال القرية . هز رأسه . تأرجح زر طربوشه :

ــ بلد كلها عيال .

عيال ؟ لماذا رنت هذه الكلمة فى أذنك بالذات ؟ حركت فى نفسك ذكريات قديمة ؟ عندما كنت طفلا تملأ أزقة . شوارع القرية لعبا وضحكا .. ! أين حمرة الخجل التى كانت تشتعل فى عين كل فتاة عندما تقابل رجلا غريبا ؟ الحياء الذى يغزو وجه كل امرأة حينما تترامى الى أذنيها كلمة غزل طائشة .. عبارة نابية .. ! أين الهواء النقى . النباتات اليانعة . الطبيعة الخلابة ؟ تبدل حال قريتنا ؟

تلفت حوله . الوحل . أكوام السباخ تنبعث منها روائح تزكم الأنوف . يحف بها من كل جانب ألوان من الحشرات . لماذا يقف

طبال القرية ساكتا ؟ ينتظر ردى ؟ يبحث عن مفتاح يضعه فى قفل الصمت ٠٠ !

سحق خنفساء تحت حذائه القديم ٠ مازلت أذكر حوارا دار بيبى وبين حسانين وبرهام :

ــ لم يعد الا أن يتسلل مخلوف وأقاربه ومن ضللوهم كعفيفى و ٠٠٠ الى هواجسنا ؟ ٠٠ ما شأنهم بما يدور فى نفوسنا ؟

ــ لن نمكن الأفاعى من نشر سمومها و ٠٠٠

ــ سوف يتحينون الفرصة للوثوب على الشيخ عبد الرحمن فقيه المسجد و ٠٠

ــ ستتسع عيوننا فى الظلام ٠

وضع طبال القرية يده على كتفه :

ــ أعلم أنك على حق يا رضوان ٠٠ مخلوف يريد أن تصبح القرية « بوظة » ٠٠ لكن ستبقى وحدك مع جرحك الغائر ؟ و ٠٠ كان أبى يقول :

ــ حدق فى الأشياء جيدا لتعرف الحقيقة ٠

لماذا لم يكمل طبال القرية عبارته ؟ أحس بيده ثقيلة كالهم ٠٠ طبال القرية يفهمنى ٠٠ يوافق على كلامى ٠ يسب ٠ يلعن سنسفيل جدود مخلوف ٠ العمدة ٠ شيخ الخفراء ٠ عفيفى ٠٠ عندما يلمح أحدا منهم يسرع نحوه محييا ٠

انتقلت عيناه بين وجه طبال القرية وشجر الكازورينا التى يداعبها الريح ٠

عادت أصوات الغناء تنطلق من جديد ٠ لو انتظر أهل القرية قليلا ؟ أعارونى سمعهم ؟ أدركوا معنى قولى ٠٠ ؟ عقب الحصاد بدلا من أن تتردد المواويل تنطلق التنهدات وزفرات خاطفة كالانهيار:

ـ يا ضياع شقاء العام كله . أنثر دمي عرقا .. وفى النهاية اخرج بيد فارغة ..!

ـ ياحش وسطى .. مخلوف أخذ المحصول .

ـ امتنعت الأرض أن تكافىء جهـدنا ؟ امتص مخلوف وأقاربه عرقنا ودماءنا ؟

أبصر شيخ الخفراء أمام دكان مخلوف . تلفت طبال القرية حوله . لماذا تسلل كالظل . خشى أن يراه شيخ الخفراء وهو واقف معى ؟ لماذا لم ينطق ولو بكلمة استئذان ..! عندما كان الشيخ عبد الرحمن يجلس فى الجامع وحيدا .. أربت على كتفه :

ـ غدا تفيق القرية من حلمها المزعج .

ـ متى ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الدهر كله غـــدا .

حطت ذبابة على وجهه . كيف أطردها وذراعاى مشـــدودتان بالحبال الى خصر شجرة السنط بقوة.. ؟

ود لو يصرخ . لو ترامت صرخاتك الى آذان أهل القـــرية . سوف يهزون رءوسهم . يسخرون منك :

« جاء لك كلامنا .. ؟ لماذا لا تكون مثلنا ؟ »

« أسير عاريا ؟ مخمورا فى شوارع القرية ؟ » .

اقتربت الذبابة من عينه . خفقت رموشه . طارت . حطت على ذقنه . تأرجح وجه عفيفى أمام بصره :

ـ لماذا تعترض على ما يحدث فى قريتنا الآن .. ؟ مخلوف يقول هذه هى الموضة ..

اجتـر كلمة الموضـة للحظات : اكتشفتها لأول مرة ؟ أحس بالغيظ يشوى صدرى . طوفان داخل أعماقى . يضغط . يبحث عن مخرج .. !

نظر نحو المسجد . حينما جاء مخلوف الى قريتنا قدم الى العمدة كتابا داخل غلاف من البلاستيك :

ــ هذا كتاب .. مقدس .

ــ قرآن .. ؟

ــ لا ..

شعر بحركة جانبه . وجد مخلوفا على مقربة منه . طعن وجهه المتورم بنظرة شوكية . فى الصـبـاح وجدت زوجتى احدى ثمار الطماطم فاسدة . ألقت بها الى الدجاج . انهالت عليها بمناقيرها :

ــ رضوان .

ــ ماذا تريد ... يا فاجر ؟

سعل فى قبضته . يخفى غضبه ؟ :

ــ لقد أخطأت حين فكرت فى المجىء اليك .

ما هذا التواضع الذى حل عليه فجأة ؟ يريد أن أطمئن اليه ؟ كيف آمن جانب العقرب ؟ لو طفاء ما فى أعماقه على وجهه كما تظهر أثار الحيات الخبيثة الكامنة ... ؟

لوى عنقه :

ــ أنا آسف ... يارضوان .

لماذا اعتذر لى .. ؟ لماذا لا يكون اعتذاره مصيدة .. مؤامرة ضدك ! دبرها شيخ الخفراء معه منذ قليل حتى لا ترفع عصاك فى وجهه صاخبا لاعنا ؟

أول مرة سمعت اسم مخلوف كان عمرى تسعة عشر عاما ٠ كان كبار القرية يتحدثون عنه فى اعزاز وتقدير :

ـ يقف بجانب كل قرية يسطو عليها قطاع الطرق ٠ يبيع كل شيء من ابر الخيـــاطة حتى الثلاجات والمواقد الكهربائية والبنادق ٠

احببت مخلوفا ٠٠ سوق يبيع لنا البنادق ٠ نسترد أرضنا من ايدى اهل الكفر ٠٠ و ٠٠٠ جاء الى قريتنا ٠٠ كانت كلماته كيزان عسل ٠٠ ثم صارت مائعة ثم حنظلا ٠

ميزت أذناه صوت أحمد العوضى :

ـ ماذا يهمك اذا أصبحت القرية « كرخانة » أم ٠٠٠ ؟

ـ حتى أنت الذى كنت أرى فيك أملا ٠٠٠ تقول هذا الكلام ؟ يا خسارة ٠ ماذا تركت لعفيفى و ٠٠ ؟

ـ لقد اكتشفت أن فوضويتى القديمة لم يكن لها مبرر ٠٠ لا تظلمنى ٠٠ لم أتغير ٠٠ بل على العكس اننى ما زلت متمســـكا بمبادئى ٠

ـ ما هذا التناقض ٠٠؟ من قبل زعم العمدة أن مخلوفا هو الشيطان ٠٠ ثم أصبحا صديقين حميمين ٠ صار العمدة شيطانا ؟ وأنت اليوم تسمى غيرتك وحبك لقريتك فوضوية ٠٠ ؟

اخترقت السكون ضحكة عصفورية ٠ شاهد عزيزة عارية ٠ فى يدها ايشارب بلون قوس قزح ٠ صارت القرية مرتعا خصبا لها ؟ بعد أن كانت تأوهاتها ٠ عرقها ٠ ضحكاتها تنطلق فى العتمة ٠ اصبحت تتعالى فى عــز النهار ٠ ؟ الرجال يضـــاجعون النســـاء فى الشوارع والأزقة كالكلاب ٠ على عينك يا تاجر ؟ ليس أحد أفضل من أحد ٠٠٠ مخلوف نزع الحياء من العيون ٠ جرد النفوس من الخجل ؟

بصق على الأرض ·· أثناء وجودى فى البندر نصحنى الطبيب ان أصحب زوجتى الحامل الى الشاطىء · عندما وقع بصرها على الأجساد شبه العارية مستلقية على الرمال · أخفت وجهها بطرف طرحتها · دقت صدرها براحة يدها الأخرى :

ـ يا ندامتى ·· ما هذه المهازل والفضائح ؟

طلبت منى العودة الى البيت ·

لحق شاب بعزيزة · اختطف منها الايشارب · مخلوف كالثعبان الأرقط · جميل · جذاب · من يقترب منه ليعرف لونه ·· يلدغه ·

نظر الى دكان مخلوف من ركن عينيه · بعد أن قابلته فى دكانه ·· أقصد دكاكينه التى تملأ القرية ·· صافحت أنفى رائحة الخمر تفوح من فمه ·· اهتزت صورته فى رأسى · اذا ذهب أحد اليه ليشترى منه شيئا :

ـ هل معك نقود ؟

ـ أنت تعرف البئر وغطاءها · جيوبنا خاوية · العام الماضى اخذت الأرز و ·· ووضعت يدك على القطن والبرتقال و ··

ـ أين ختمك ؟

ـ ليس معى ·

ـ ابصم هنا ·· على هذه الكمبيالة ·

مخلوف ينتظر حتى تستأنس الضحية · تستسلم ·· ثم يفاجئها بالمطالبة والتهديد ·

توارى قرص الشمس خلف أشجار الكازورينا · كنا نحلم بالشمس الخضراء · الدور المبنية بالطوب الأحمر والنوافذ الزجاجية والكهرباء التى تضىء ·

ارتطم بصره بالدور المحترقة :

ـ في الحرائق تذوب الأموال ٠

ـ أنت لا يهمك الا أن يظل الخلاف والتوتر والعراك قائما بيننا وبين أهل الكفر لكى نذهب الى دكاكينك ٠٠ من يشترى البنادق وعلب السردين ٠٠ الطعام المجفف ٠٠ غيرنا ٠٠ ؟

أسند رأسه الى جذع شجرة السنط ٠٠ لم أسترح الى مخلوف ٠٠ بالتحديد لا أستريح لعينيه الزرقاوين اللتين لا تستقران أبدا في محجريهما ٠ امتلأت خزائن دكاكينه بالكمبيالات ٠ مصاغ نساء القرية المرهونة لديه ٠٠ بدأ يهمس فى أذن كل زبون عما اذا كان يمتلك حمارا أو جاموسة أو قطعة أرض ٠٠ ؟ لماذا يتساءل عن ٠٠ ؟ لم تبق الا الماشية والأرض يريد أن يضع يده عليهما ٠٠ ! لقد حذرت أهل القرية :

ـ يا جماعة مخلوف أبعد تاجر عن الكلمات التى ينطق بها ٠٠ زرع فى صحراء نفوسنا ورد الأمل ٠ فل الأحلام ٠ ألم يحدثنا عن المساواة ورجوع الأرض لنا ٠٠ ؟ أصبح اليوم كل همه أن يمتص دماءنا ٠٠ مللنا حياته الصرصارية ٠

مرقت حمامة بجانبه ٠ كان أبى يحب الحمام ٠ يكره العقارب ٠ عقب عودتى من البندر رآنى مخلوف أمام المسجد ٠ اقبل نحوى

ـ تفضل يارضوان كوبا من الشاى الأسود ٠

لويت ظهرى :

ـ حتى الشاى أصبحت له ألوان ٠٠ ؟

لمح عزيزة تتأبط ذراع عفيفى :

ـ مازال مخلوف متمسكا بمبادئه وولائه لقريتنا ٠ حدث خطأ ٠ ليس الخطأ فى الاستراتيجية ولكن فى التكنيك ٠ وسوف يساعدنا ٠

استراتيجية ؟ تكنيك ! ماذا تعنى هاتان الكلمتان ؟ ألم يدرك اهل القرية أن مخلوف وظلاله غرباء حتى فى الكلمات التى

يتشدقون بها ؟ متى سيساعدنا مخلوف ٠٠ ؟ انه يقيم بيننا منذ ثمانية عشر عاما ٠ لم يحرك ساكنا ٠

زاد أهل الكفر تبجحا ٠ كادت أرضهم أن تأكل زمام قريتنا ٠ عندما تعود الينا ثقتنا بأنفسنا ٠ قدرتنا ٠ ارادتنا ونقرر مواجهة أهل الكفر لنسترد أرضنا ٠ يثبط مخلوف من عزيمتنا ٠ قال سيساعدنا قال ؟ انه تاجر ٠ بعد أن يسلم على الزبون تبحث أصابعه في كفه ٠ يجرى المال بين يديه من روافد متعددة ٠

جز على أسنانه ٠ يكتم آلامه ؟ يخنق غيظه ؟ فى اللحظة التى عدت فيها من البندر مع زوجتى ٠ لمحت عفيفى أمام قهوة المحطة ٠ لويت عنقى ٠ تجاهلت يده الممدودة نحوى ٠ لا أحب الكلام مع هذا الفاسد ٠ المناقشة معه سذاجة وعبث ٠ سوف يوجع دماغي ببعض كلمات يرددها كالببغاء ٠ برجوازية ٠ أنا طليعى ٠ أنا تقدمى ٠٠

أغلق مخلوف دكانه ٠ عندما طلبت منه أن يحل عن قفانا ويترك قريتنا ٠ امتدت من عينيه الزرقاوين ألف مخلب :

ـ انني أعجب ٠ كيف يحشر رجل أنفه فى أمور لا تعنيه ؟

ـ قريتى لا تعنينى ٠٠ ؟

اقبل شاهين أبو سليمان نحوه :

ـ ماذا حدث يارضوان ؟ لم أصدق قول أهل القرية ٠٠٠ الا بعد أن رأيتك الآن مشدودا الى شجرة السنط ٠٠ هل علم العمدة ؟

ـ عمدة ٠٠ ؟ الله يصلح حالك ٠٠ لم يعد يحل ولا يربط ٠٠ مخلوف أصبح كل شىء فى القرية ٠

ـ لا ترفع صوتك ٠٠ أتريد أن تلحق بحسانين أبو المجد ويرسم الدكر !

كانا يعارضان أفعال العمدة وشيخ الخفراء . ارتفع صوتهما بطرد مخلوف من القرية . أخذا فى جوف الليل الى حيث لا يعرف أحد لهما مكانا . ترى أين هما الآن ؟ أحياء أم أموات ؟ ذهبا فى لمحة عين من ليلة لم يظهر لها قمر .. قال البعض أنهما محبوسان فى دوار العمدة . زعم البعض أنهما بمستشفى الأمراض العقلية . لكن آخرين يصرون على أنهما ماتا منذ أعوام :

ـ يارضوان مالك ومال مخلوف .. ربنا يهديك . لماذا لا تسير كما يسير أهل القرية ؟

ـ نقلد بعض ! نسير كالأغنام ؟ نسمع خرافات وسخافات مخلوف ؟

ـ « موضة » العصر .. مخلوف يقول اننا متخلفون . لا نساير تطور العصر .

ـ « موضة » العصر ؟ التخلف .. ؟ أن نهرب من كل منطق ؟ نهجر المبادىء ؟ ننبذ القيم ؟ نتخلى عن أخلاق القرية ؟ نأخذ تفسيرا آخر لكل شىء جميل !

ـ أهل القرية يوافقون على ...

ـ اذا التففنا حول الشيخ عبد الرحمن لن ندفع مليما .. الجرى وراء مخلوف سيجعلنا نبيع ملابسنا . ما جدوى الجرى وراء الأفكار الجوفاء ؟

زحف الظلام . اقتحمت صورة أحمد العوضى رأسه :

ـ الطريق الذى تسير فيه طويل . كله أشواك . لست قد مخلوف وأقاربه .

ـ ذئب الغيط كان شجاعا ثم صار .. !

ـ لا تقف فى وجه العاصفة .

ـ ساصنع من حبال اليأس أوتارا ·

زفر شاهين · ضرب فخذيه بيديه :

ـ أنت حر · ذنبك على جنبك ·· يارضوان ·

بعد شهور من حضـــور مخلوف الى قريتنا · جمع شبابها حوله · راح يقرأ فى كتابه المغلف بالبلاستيك ·· عندما ترامت كلماته الى أذن الشيخ عبد الرحمن ملأ الذعر عينيه ·· أسرع الى مخلوف :

ـ كيف تدعى أنه ليست هناك كتب ســـماوية · وأن كلها أساطير ·· ؟

ـ ···

ـ هل لديك دليل واحد على أن الحياة طبيعية · لم تتدخل يد فى خلقها ؟

ـ ···

سار شاهين بجوار ميضة الجامع · بعد أن رسخت قدما مخلوف فى القرية · لم يرتفع صوت المؤذن · كاد مخلوف أن يخمد أنفاس الشيخ عبد الرحمن ·· لولا لطف الله · مضت سنوات وهو يرقد فى داره مشلولا · يتردد عليه حلاق القرية · يقدم اليه الوصفات البلدية والدواء :

ـ مخلوف له حيل لا يصل اليها الشيطان ·

ـ أخشى أن يبدل ديننا · يظهر فى قريتنا الفساد ·

ـ ما زال يصر على صحة أكاذيبه ·

ـ ربنا يرد كيد الحاقدين ·

ارتفعت أنغام الموسيقى . خدع مخلوف أهل القرية ؟ بهرهم بتكنولوجيا الأصباغ ؟ آخر صيحات الرقص ؟ دعاهم اليها .. ثم علمهم اياها .. أصبح كل شيء مباحا في القرية .. !

رأى كلبة طبال القرية تنبش في كوم السباخ . بطنها منتفخة . اثداؤها تتدلى . ترى هل وضعت زوجتي ؟ منذ يومين يدهمها المخاض . أعلنت الداية أنها ستلد اليوم .

زامت كلبة الطبال . لم تعثر على شيء تأكله ؟ هل يجد أهل القرية شيئا يأكلونه لكي يقذفوا بفضلاته على أكوام السباخ ؟ مخلوف وضع خيرات القرية في بطنه . في أكراش أقاربه . الخنازير لا تعرف الشبع . تلتهم كل ما يلقى أمامها . لا تميز معها طعما . كلما أكلت ازدادت جوعا ونهما .

الليل ينزف ظلاما . هل يمكن أن تضم قريتنا كل هذا القدر من العتمة ؟ كل شيء تداخل . اختلط . لا رؤية واضحة . غرقت القرية .. !

تفجرت ضجة عارمة . أطل وجه العمدة من بين عشرات المشاعل . مئات الوجوه الشاحبة كالخريف .

صعد شيخ الخفراء فوق كوم السباخ . ابتعدت كلبة طبال القرية . رفع العمدة يديه . طلب مخلوف من أهل القرية السكوت . ردد عفيفي قوله .

آخر مرة قابلت الشيخ عبد الرحمن في داره :

ـ هل هذا كلام يرضى الله يا مولانا ؟

ـ « وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » .

مخلوف يخشى الجلوس مع الشيخ عبد الرحمن . عندما يدخلان في نقاش حول الملكوت الأعلى يتحول كلام مخلوف الى صياح .. يبتسم واعظ القرية :

ــ لو كانت لديك حجة دامغة لتحدثت بهدوء ٠

مخلوف يخاف ٠٠ يخشى الجدل ٠ أنا على يقين أنه اذا واصل النقاش مع الشيخ عبد الرحمن سـوف يلقى بسـلاحه الصدىء أمامه ٠

انحسرت الضجة ٠ هتف العمدة :

ــ لقد منحتك فرصة للتفكير على مهل ٠ هل ستمسك بلسانك وتعود الى رشدك ٠٠ وعفا الله عما سلف ٠٠ ؟

ــ ٠٠٠

ــ ماذا قلت يا رضوان ؟

ماذا يريد ؟ ألقى بعصـا رفضى تحت الأقـدام ؟ أعتـرف بحماقتى ؟ أعلن ندمى والموافقة على ما يجرى فى قريتنا ؟ أسير مع الموضة ؟ نجوم السماء أقرب له ٠

أطبق فمه ٠ لم تفلح العيون الزاجرة أن تدفعه الى الحديث :

ــ تكلم ٠٠

ما أصاب القرية لا يقال فى كلمات ٠ بعد أن أطبق مخلوف بمخالبه وأنيابه على أعناقنا راح يبث سمومه ٠ سود عيشتنا ٠ أخذ مخلوف من قريتنا منطلقا لكى « يدحلب » ٠ يدخل فى « زواريق » عمد القرى المجاورة ٠ ثم يجلب اليها أقاربه ٠ يحول الهواء المنعش الى عفونة ٠ يحل الخراب المستعجل ٠٠ كل من عرفه على حقيقته يلعن اليوم الأسود الذى عرفه فيه ٠ يلقى باللوم على قريتنا هى التى جلبته ٠ احتوته :

ــ مازلت غاضبا على مخلوف ؟

ــ مخلوف أكبر « مهياص » ٠ عينه فارغة ٠ كل الذين عرفوه على حقيقته يلعنون معرفته ٠

كشر مخلوف عن أسنانه الصدئة · برقت عيناه الطحلبيتان · أشاح العمدة بوجهه · استولت عليه الدهشة ؟ فوجيء برديء ؟ وقعت عيناه على جلبابى المزق،·· ؟ :

ـ منظرك يثير الاشمئزاز ·

ـ اذا كان مظهرى يضـــايقك لا تنظر الى ·· أطال الله عمر مخلوف ·· وبقى على صدر القرية كالكابوس ·· وان شاء الله لن تجد « اللضا » ·

ملأ الانزعاج حدقتى شيخ الخفراء :

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ أيرضيك أن ·· ؟ ستموت ···

ـ يرضينى كل الرضا · سأموت كالشجرة التى شد جسدى اليها ·

شهق عفيفى · تلاحقت شهقات ومصمصمات الاستهجان :

ـ يا عالم ·· افهموا معنى كلامى ·· بعد أن « طب » مخلوف اقام فى قريتنا · أصبحت الحياة مريرة · محورها البحث عن لقمة العيش · صار القبيح فى قريتنا جميلا ··

أين صوتى ؟ ابتلعه هدير أهل القرية ؟ تكسر تحت أقدامهم ؟ غاص فى الوحل ؟ مات ·· ! كم مرة أعلنت الحقيقة ؟ مائة مرة ؟ الف ·· لم يسمعها أحد ·· سمعها أهل القرية ولكن صادفت آذانا نحاسية ؟ رنت فى أعماقهم ولم يصدقوها ؟ لماذا ينظر أهل القرية اليك هكذا ؟ لم تعد تعجب أحدا ؟ جاء اليوم الذى يفرح فيك من يساوى ومن لا يساوى ·· !

الصمت أثقل من حزن الأحزان · هم الهموم · هشم السكون صوت شيخ الخفراء :

ـ ألم أقل لكم ·· ؟ لن يجدى معه التسامح ·

اهتزت المشاعل . ارتفعت أصوات همجية .

اشتعلت عيناه بلهيب الغضب . يرمونك بالتهم المجدولة من ألياف العفن ؟ يقذفون وجهك بكلمات أقسى من هذا الوضع الذى ..؟

ابتسم مخلوف .. رفع يديه بحذاء كتفيه .. مات الضجيج :

ـ فكر جيدا يا رضوان .. الحياة أغلى من العناد و ..

ظن انه سيخدعنى بصوته الخافت الذى يفيض رقة ؟ اننى أعرفه .. يحترف الطيبة .. عيناه الخبيثتان يتطاير منهما شرر الحقد .

حطت عيون أهل القرية على شفتيه المزمومتين . تريد أن تظفر منك برد محدد ؟

تحجر وجهه . لمعت حدقتاه باصرار صامت عنيد :

لوى العمدة ظهره :

ـ علقوا فى رقبته حجرا .. ألقوا به فى النهر .

اقترب طبال القرية منه .. لاهثا :

ـ لقد وضعت زوجتك ... طفلين .

الذئب

١

بسط راحتيه فوق « المنقد » المشتعل . أين الدفء ؟ يقف اللهب عاجزا أمام البرد ؟ الثلج يهب من أعماقى ؟ الله يرحم أيام زمان . كنت تستحم فى الترعـة فى عز طـوبة . لماذا تذكرت السنوات الماضـية الآن ؟ الأيام الحلوة أصبحت ذكرى ذابلة فى الصدور ؟

عوت رياح أمشير فى صحن الدار . هتفت الزوجة :

ـ لم يعد حسانين من الغيط .. ؟

هب واقفا . لماذا تركته بمفرده فى الحقل ؟ ما سبب تأخيره ؟ أخبرنى أنه سيحش بردعة برسيم ويلحق بى . فاجأه الذئب ؟

قفز من فوق ظهر الفرن . اندفع نحو الباب . الأفق يلون الدم . عندما تسلل الذئب الى الزريبة . بقر بطن الخروف . ملأت دماؤه حفر الوحل .

الطريق ملتو . خال . خيبة أمل . لو تجاوزت عيناك القلقتان الخط الذى تلتقى عنده السماء بأرض القصب ! يبدو مرتفعا . جدار من الخضرة يعلوها التراب .

توقف . أدرك أن يده خالية ؟ كيف تواجه الذئب هكذا ؟ لو أحضرت عصا ؟ ماذا تفعل أمام ذئب أجرب ! لو رآه أحد من القرية .. ؟ :

« شعلان .. هل تحدث روحك ؟ » .

« ما شأنك » ؟

رفض أهـل القرية الوقوف بجانبى . أعلنوا أن دارى فى « الهـــو » .

اقترب من غيط شهاب الدين :

ـ دارى تقع فى وسط القرية . لن يصل اليها الذئب .

سرب من العصافير تحوم فى السماء . عادت من رحلة النهار ؟ لماذا لم يعد حسانين ؟ محال أن يتأخر فى الغيط حتى الآن .. !

حطت العصافير فوق نخلتين متعانقتين . ليلة ما سمع إبنى الصغير عواء الذئب يسرى فى جوف الليل :

ـ ما هذا ؟

ـ ذئب .

تعلق برقبتى . التصق بصدرى . بكى :

ـ أين أمى ؟

من الجائز أن يكون حسانين قد ذهب الى دار خالته ؟ كثيرا ما يعود من الحقل يعرج على بيتها . يلقى اليها « غمر » برسيم . كيف يسير وحده فى هذه الوحشة المعتمة ؟

استدار . تكور المساء فوق صدر القرية . لماذا يبدو مصفر الجبين تخضبه الكآبة ؟ كل شىء يحيطه غموض و .. !

عندما يزحف الليل على الجدران الطينية يولد بين جوانحى خاطر غامض . أشم رائحة لا تخطئها النفس . تجعل شعر الرأس أشواكا .. !

تناهى الى أذنيه صوت . حفيف الريح ؟ خشخشة أوراق القصب ! لماذا دق قلبى بعنف ؟ هناك شىء يرقبنى .. ؟ منذ متى كان يرصدنى ! أأندفع كالبرق ؟ أأنتظر حتى أدير ظهرى ثم ألقى نظرة .. ؟ ماذا أفعل لو وجدت الذئب ورائى ؟ لم لا أتحقق .. ؟
لا أستطيع حتى أن ألوى عنقى :

ـ أبى .

ـ حسانين !

لماذا خرج صوتى مشروخا ؟ ما هـــذا الذى يغطى جلبابه الممزق ؟ دم !

٢

الليل غويط كالموت . الدور مكومة . منكمشة . الأبواب مغلقة . تتسرب منها رائحة دفء باهت . تماوجت أمام عينيه صورة ابنه :

ـ كيف فلت من مخالب وأنياب الذئب ؟

ـ أثناء عودتى من الغيط هاجمنى .. انطلق الحمار . سقطت على الأرض فوق بردعة البرسيم . صرخت . جاءتنى أصوات بعض رجال القرية العائدين من حقولهم . والذئب .

واصل سيره . يبحث عن الحلاق . كنت سعيدا . ترفرف على الطمأنينة قبل أن يعرف الذئب دارى و .. أين كل ذلك

منى الآن ؟ قلبى تورم . سيتوقف عن الخفقان . المطلوب حدوث معجزة ؟ انتهى زمن المعجزات . كيف تتحقق فى وقت ملأ فيه الحسد والبغض الصدور ؟ خلت القلوب من الايمان ؟ أين التعاطف و .. ؟ لماذا لا نتعاون ؟ تشاغل كل رجل فى القرية بأموره وهمومه ؟ عزفت النفوس عن التضامن والالتقاء ؟

عثر على الحلاق . عبرت نجمة ذات ذيل سماء القرية . هتف :

ـ سهم الله فى عدو الدين تحرق القوم الكافرين .

كانت جدتى تردد هذه العبارة عندما ترى نجما يهوى :

ـ لماذا لا يقف أهل القرية بجانبك ؟

كم مرة ناقشنا الأمر بيننا ؟ لم نصل الى حل . مال دورهم بعيدة عن مخالب وأنياب الذئب قال ؟

أقبل أهل القرية . لماذا تبدو العيون مرخاة الأهداب ؟ تحجب ظلال الاشفاق والحزن ؟

تناثرت مصمصات الشفاة . يريدون أن يتساءلوا .. متى ؟ كيف حدث ما حدث ؟ لماذا لم .. ؟ لا أملك الاجابة على سؤال .. كل واحد يعرف سبب صمتى . يدرك الحقيقة .

تساءل الحلاق وهو يضمد الجروح :

ـ لا حيلة لنا أمام هذا الذئب ؟

هز الشيخ طنطاوى رأسه :

ـ ليس فى القرية رجال . أليس كذلك يا شهاب الدين ؟

لا حياة لمن تنادى ؟ انك تنفخ فى قصبة مشروخة . تستطلع رأى شهاب الدين ؟ طول عمره له أذن من طين وأخرى من عجين . لا يأخذ الأمور بعين جادة . ليس له عمل الا أن « ينجعص » على

المصطبة « يكركر » بالجوزة · يضحك على المارة فى الشارع · اذا لم يجد أحدا · يسخر من نفسه · منذ شهرين طلبت منه أن ينبرع بجنيه لنشترى بندقية · طرح ظهره الى الحائط · أخذ يثرثر وكأنه عارف واعظ · ثم نهض واقفا :

ــ أنا أسكن وسط القرية · لن يستطيع الذئب السطو على دارى ·

أغلق الحلاق حقيبته · تسلل شهاب الدين من الباب · لحق به أهل القرية · الأمر لا يهمهم ؟ فى الصباح يستمتعون بدفء الشمس · يتحلقون فى الأجران حول « السيجة » · قبل العصر يشاهدون تلاميذ القرية وهم يلعبون الكرة · بعد الغروب يغلقون الأبواب · ينامون على قباب الأفران · لماذا لم يفكر أحد فى التعاطف والتآخى و ·· ؟

غرس عصاه فى « بحراية » المندرة · استحلب تحت أسنانه احساسا لزجا بالسخط والحزن ·

كم فرجت كرب محتاج ؟ أسرعت لغوث ملهوف ؟ ما هذا ؟ رائحة شواء ؟ لا اننى اشم رائحة احتراق بداخلى . كبـدى ؟ رجولتى ! ماذا أفعل بمفردى أمام الذئب ؟



أشعلت الزوجة اللمبة نمرة خمسة :

ــ ماذا قررت ؟

ــ سأبيع الحمار

ــ أمصمم على شراء بندقية ؟

لم لا ؟ لا اريد أن يشفق على أحد . سأتولى أمرى بنفسى .
كل واحد ممن يسكن داير القرية يحمى داره :

ـ ليست التجربة سهلة

ـ لكن فيها الخلاص

ـ ستذهب الى مخلوف ؟

مخلوف مرة أخرى ؟ لو ذهبت اليه سوف يعود الى مراوغتى ومماطلتى . أرى فى عينيه الزرقاوين شيئا غريبا . يتلذذ برؤيتى مهموما ملهوفا ؟ طاب له سيرى منكس الرأس و ... ؟ :

« خذ هذا الفخ الجديد . سيقع الذئب بين فكيه . لن تستطيع استعمال البندقية الآن . سيتطلب استعمالها تدريبا طويلا شاقا . أخشى أن تخطىء التصويب وتقتل أحدا من أهل القرية . هذا الشرك الجديد سيضع حدا لعبث الذئب » .

من قبل قدم الى فخا . أخذ يعدد مزاياه . أكد لى أن الذئب لن يفلت من قبضته :

ـ ما دامت النقود فى جيبك لماذا لا تذهب الى سامى ؟

سامى ؟ كيف غابت هذه الفكرة عن ذهنى ؟ سامى يكره مخلوف كالعمى . يتودد الى . لكن سيقدم الى بندقية ؟

٤

فتحت القرية عينيها على صرخات ملتاعة . سادها لغط وهياج شديدان . يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم . ماذا حدث ؟ حلت كارثة ؟ اندلع حريق ؟ سقطت بهيمة فى بئر ساقية ؟

هرع أهل القرية نحو مصدر الصرخات . تكاثفت الجموع . وقفوا مطأطئى الرءوس حول شهاب الدين . راح يتمرغ أمام داره . لطم خديه :

ـ تسلل الذئب الى الزريبة . شق بطن الجاموسة . عندما نهضت من النوم وجدتها « باركة » وأمعاءها تتدلى بجانبها . لو كانت جاموستى ! ماذا أقول للشيخ طنطاوى ؟

استطالت كلمات شهاب الدين المبللة بالدموع .. أنين موجع .

تبعثرت التعليقات :

ـ كنت أول من أعلن أن دارك بعيدة عن متناول الذئب .

ـ كيف نسكت على هذا الوضع ؟ نخشى أن يأتى الذئب الى ديارنا .

أول مرة تواجه القرية الأمر بصراحة واهتمام . كانوا يهزون رءوسهم وكأن لا يعنيهم شيئا . أيقظهم من غفوتهم ما حدث لشهاب الدين ؟ فى عينيه حيرة ودموع .

أول مرة أراه حزينا . لم ألمح على وجهه سوى اللامبالاة والفرح منذ الطفولة . أدرك الآن عمق المأساة ؟

٥

وقف خلف النخلتين المتعانقتين متحفزا . توارى الرجال وراء مدار الساقية . أيديهم تقبض على العصى والفئوس . لم أطلب منهم المجىء . عندما أبصروا البندقية فى يدى تبعونى ؟

لمح الذئب قادما · دقات قلبه تصم أذنيه · عاد الخوف يتسرب الى صدرى ؟

ألصق البندقية الى كتفه · ثوب ابنه المهلهل الملطخ بالدم · صورة شهاب الدين وهو يتمرغ أمام داره · تتماوجا نأمام عينيه ·

ضـغط على الزناد بقـوة · عـوى الذئب · قفـز فى الهواء متشنجا · سقط على الأرض · انطلق الرجال نحوه يلوحون بعصيهم وفئوسهم ·

وثب الذئب الى حقل القصب · أصابته رصاصتى ؟ سوف يعود بعد أن يشفى جرحه ؟ سيرجع ومعه قبيلة من الذئاب تهاجم دور القـرية !

المستنقع ..

١

حملت الفأس . سرت أمام الماء المتدفق من « خوخة » الساقية أزيل السدود . أقتلع الحشائش . وقع بصرى على جثة كلب منتفخة تحيط بها الأعشاب . قذفت بها فوق الجسر . منذ أن قدم الوافدون الى العزبة عكروا صفو قريتنا وهناءها .

نظرت نحو توتة صالح :

ــ كانت قريتنا آمنة لا تعرف كيدا ولا مكرا . كثرت حوادث السرقة والسطو .

ــ ماذا يريد اللصوص ؟ يغرسون فى نفوسنا احساسا بالرعب؟

هوت الفأس على الحوال . أخذت قدمى تشق طريقا أمام الماء .

عادت كلمات نوارة فى أذنى :

ــ متى تجوب أقدامنا شوارع القرية فى الليل ؟ القلوب تهفو الى الفرحة كأرض عطشى .

لماذا ينساب الماء من الحوال فى تكاسل ؟ التفت نحو الساقية ٠ توقفت ؟ ألهبت الفرقلة ظهر البقرة ٠ كلما عاودتنى عبارة عبد الحق تلسعنى عقرب هائجة :

ـ قطاع الطرق يريدون أن تقدم القرية اليهم أتاوة ٠

وسدت الفرقلة كتفى :

ـ ما رأيك ٠٠ ياشيخ يوسف ؟

ـ لو وافقنا على مطالبهم فسوف نفقد كرامتنا ٠

أسرع المـــاء فى المروى ٠ الى متى تغط القرية فى ســـبات الاسترخاء ؟ خمسة وتسعون بالمائة من أهل قريتنا قد عدموا الادراك والفهم ؟ ماذا ينتظرون ؟ حتى يأتى اللصوص ويختطفون زواجاتنا٠٠؟

نظرت نحو بئر الساقية ٠ أطلت صورة الأستاذ محمد :

ـ ألف أهل القرية هذا الوضع ؟ لو دارت الساقية ٠٠ ماذا ستحمل من أعماق البئر ٠٠ علقما ٠٠ ؟ ٠

هوى قرص الشمس فى جوف الأرض ٠ ماذا سيفعل الوافدون اذا لم نستجب لرغباتهم ومطالبهم ؟ سيحرقون محاصيلنا ؟ يسمون مواشينا ؟ لو أدبناهم يوم أن ضربوا طبال القرية ؟ لو خرجنا فى أعقابهم ليلة أن خطفوا الحسينى بن نوارة ٠٠؟ سكتنا٠ تسامحنا٠ ظنوا ذلك ضعفا ٠ حذرنا محمد أفندى :

ـ الطاعون يبدأ بحالة واحدة ٠٠ ثم يصبح وباء ٠

تلفت حولى ٠ لم يعد فى الغيط غيرى ٠٠ والمساء ؟ فى الظلام تســـبح المخـاوف على أجنحة العتمة ٠ لولا أن كسرت « شعبة » الساقية ٠ جاء النجار متأخرا ٠٠ لانتهيت من رى الأرض منـــذ ساعتين ٠ لماذا لا أكتفى بهذا القـــدر ٠٠ ؟ غدا أكمل سقى بقية الأرض ٠ النهار له عينان ٠ لكن الدور سينتهى الليلة ٠٠ ! ٠

أنا على يقين أن شيئا خطيرا سوف يحدث ؟ ما هذا الشيء ؟ لا أعرف على وجه التحديد . ارتفع صوت المؤذن لصلاة المغرب :

ـ عكاشة يسير وراء مخلوف .. زاهر أصبح ظلا لسامى .. ثم تبعهم بعض من أهل القرية .. يا مولانا .

ـ كذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون .

شرخ أنين الساقية عروق الصمت . لماذا سكت أهل القرية حينما تشاجر مخلوف مع محمد أفندى ؟ :

ـ أنت لا تفكر الا فى النقود وسبل الحصول عليها . لا تعرف الشبع . جعلت من القرية مزرعة من مزارعك .

ـ اننى أمد لكم يد العون و .. هل هذا .. ؟

ـ خدعتنا بألوانك المهرجانية . خدرتنا بالوعود والأمانى .

توقفت الساقية . هززت الفرقلة . واصلت البقرة سيرها . بأى وجه قابل المدرس الفاضل تلاميذه وأولاده ؟ أدركوا انه مثل يقتدى به ؟ منذ أن حل مخلوف بقريتنا . لم تتوقف هجمات قطاع الطرق علينا .

رميت ببصرى نحو العـــزبة . تذكرت حوارا دار بينى وبين زاهر :

ـ يبدو ان مخلوف غير جاد فى مساعدتنا .

ـ قلت لكم هذا الكلام مرارا .. لم تصـــدقوا قولى . ماذا تنتظرون من فاسق ؟

ـ سامى عظمة زرقاء .

ـ من أهل الكتاب .

ـ الأستاذ محمد يقول ان بيننا وبينه ثأرا قديما ٠٠ كيف يكون مخلصا في مساعدتنا ؟

أتم المؤذن الآذان :

ـ مخلوف وسامى لا يعرفان الا المزيد من الأخذ والابتزاز ٠٠ ماذا قدما لقريتنا يا مولانا ؟

« قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا» قال موسى: « عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض » ٠

سحبت البقرة ٠ ألقيت نظرة قلقة ورائى ٠ لماذا تتمهل فى سيرها ؟ ألا تدرك أن الخوف يسير فى الطرق ؟ مفروش فى كل مكان ؟ نتنفسه ٠٠ !

كدت أن أسقط فى حفرة ٠ فى صدرى عشرات الاستفهامات ٠٠ استحالت أعماقنا الى حقل ملغم بالأسئلة والاستفسارات ؟

انهالت قبضتى على ظهر البقرة ٠ تصر على ٠٠ ؟ لا بد أن قلبها يحدثها بأن الخـــاطر الذى قفز الى رأسى منذ قليل ليس الا وهما ٠٠ ؟ الحيوانات لديها احســـاس أصدق من احساس الانسان ٠٠ !

آخر مرة قابلنى مخلوف :

ـ ما رأيك فى الشيخ يوسف ؟

ـ مولانا ٠٠ ؟ يحفظ كتاب الله ٠ فقيه القرية ٠٠ مفتيها ٠ مركز التفافنا ٠

تطلعت الى السماء ٠ لماذا تبدو النجوم مرتعشة ؟ خائفة ؟ فى جزع من وحشة الليل ؟ ليلنا مفعم بالصمت ٠ الترقب ٠ المرارة ٠ جبل يجثم على القلب ٠ عندما يحل الظلام ننهض مرارا لنتأكد من اغلاق النوافذ والأبواب ٠ تسرع أيدينا الى العصى والنبابيت الراقدة

بجانبنا كلما التقطت آذاننا المنشورة حركة متسللة خارج الجدران وقفت البقرة • بالت أصاب الرذاذ جلبابى ؟ منذ أن حطت النجاسة بالعزبة • أصبح التوتر ملتصقا بأقدامنا • نجده أينما نسير ؟

غرست بصرى على امتداد الحقول • أين يكمن اللصوص ؟ فى مصرف صالح ؟ فى بئر الساقية المهجورة ؟ فى أرض جبريل المزروعة بالأرز ؟ على بعد خطوات منك •• !

سرت فى جسدى رجفة • ماذا تفعل لو « طبوا » عليك • أحاطوا بك ؟ لو صرخت لن يسمعك أحد من أهل القرية فى هذه المنطقة البعيدة بعد الغروب كل واحد يغلق باب داره بالضبة والمفتاح • لا يغادرها الا فى الصباح حتى لو جاءه صوت استغاثة من صحن الدار •

مزق الصمت خوار البقرة • هرعت يداى نحو فمها • أطبقتا عليه • تسلل الخوار من بين أصابعى • فمها واسع كأفواه المتشردين •• سوف يلفت انتباههم كما يجذب صياح الدجاج الثعالب • كانت البقرة صامتة طوال النهار • لم يحل لها الخوار الا هنا الآن •• ؟ لماذا لم يصبها الخرس •• كما أصاب أهل القرية •• ؟

أذناى مفتوحتان عن آخرهما • ضربات قلبى تدوى بين جدران رأسى •

دقت يدى ظهر البقرة بغيظ • لولا أن نسيت الفرقلة والفأس بجوار الحوال لمزقت جسدك • تتحدانى ؟ لم تعد تعجبك الحياة معى ؟

أمسكت بذيلها • أأضعه فى فمى ؟ أغرس فيه أسنانى •• ؟ لكى تسرع الخطو • تكف عن الخوار •• ؟ ماذا أفعل لو زادت من خوارها •• ؟

اقتربت من الكوبرى . الليل على مشارف القرية وحش مخيف . وقف شعر رأسى . صار شوكا ؟ الشهر الماضى وجد أهل القرية الحسينى بن نوارة مقتولا على الكوبرى :

ـ لا بد لكل جريمة من فاعل .. ترى من يكون الفاعل ؟

ـ ثلاثة أو أربعة من اللصوص . اختطفوا الحسينى من داره و ..

لكن لماذا لم تبك نوارة ؟ :

ـ سيعيد البكاء ابنى ؟

لففت « رواسة » البقرة حول قبضتى . ترى من عليه الدور ؟ صالح .. ؟ الشيخ يوسف ؟ محمد أفندى ؟ أنا .. !

ما هذا الذى يبلل ثيابك ؟ عرق ؟ شىء آخر .. ؟ لا داعى . أخجل أن أذكره .

أتمنى أن أرى شبح كائن حى . ألمح وميض ضوء من بعيد . أسمع نباح كلب يجلب الى الطمأنينة . أين نباح الكلاب وأصداؤها الرنانة التى كانت تتردد فى طرقات القرية ؟ أصبحت لا تخرج الى الشوارع ؟ ترفع أنوفها الرطبة . تتشمم رائحة الخوف والتوتر من فوق سطوح المنازل ؟

تنهدت . كنا نترك المخاوف .. الأحقاد عند الأبواب المفتوحة . ننام نوما عميقا .

الآن نبتلع نزيف الألم ؟ نصحب الرعب . الأرق الى فراشنا ؟ رضينا بتمريغ أنوفنا فى التراب ؟

وطئت قدماى الكوبرى . لماذا تسمرت مكانى ؟ ما سر هذه الرعشة التى شملت جسدى ؟ اختطاف الحسيني بن نوارة ؟ ذبحه على الكوبرى ؟ ظلت جثته سابحة فى بركة من الدم ساعات . ترك مقتله وراءه ذيلا طويلا من الذهول . الفزع . يقولون ان عفريت القتيل يقف فى مكان جثته . الأرواح لا تخرج الا ليلا . لو اعترضت روح الحسينى طريقك الآن ؟ ماذا ستقول لك ؟ لا بد أنها ستسخر منك . لماذا لا تهزأ بأهل القرية ؟ أتحاسب على شىء لم ترتكبه ؟ لم أفعل سوى السكوت . كل أهل القرية ساكتون . تركوه يموت بلا ثمن . لكن ألســـت رجلا من هل القرية ؟ سأقرأ على روحه الفاتحة .

زحفت قدماى . أصبح الموت شيئا متوقعا فى أى وقت .. مكان ؟ السرقة . البلطجة مسألة لا تحتاج الى استفسار أو مناقشة أو حسم ..؟ لماذا لا يأخذ عفريت ابن نوارة بثأره من اللصوص ..!

التفت نحو دارها . لماذا لم تقبل عزاء من أحد ؟ رفضت اقامة مأتم ؟ :

ــ مات ابنى بدون أية استغاثة . أية فرصة لأحد كى ينقذه .

اذا كانت القرية فى حاجة الى من ينقـــذها فهل .. ؟ هز اللصوص الثقة فى نفوسنا ؟

عبرت الكوبرى . شىء من الطمأنينة يتسلل الى صدرى . عندما أعود الى دارى سألقى بجسدى على ظهر الفرن .. قبل أن أغادر الدار كانت زوجتى تحمى العرصة . لا بد أن الفرن دافىء . كجسدها . سأصرخ فى وجهها :

« اربطى البقرة فى الزريبة . اغلقى بابها جيدا . أحضرى برام الأرز المعمر وطورة بيض . لم أتناول طعاما طول النهار » .

« لماذا تأخرت هكذا ؟ كنت مشغولة بسبب تأخيرك » .

الشارع خال من كل معنى للحياة ؟ كتب علينا أن نعيش فى العتمة . العذاب لفترة لا يدرى أحد كم ستطول .. ؟ ماتت القلوب؟ كيف تنبض بالأحاسيس التى تخفق بها قلوب الأحياء ؟ كان مجىء الليل بسمره و .. يعنى غسل هموم وكآبة اليوم الطويل .

حكت البقرة جلدها فى حائط عكاشة :

ـ لقد سمعت ان اللصوص أشعلوا النار فى زريبة صالح .

ـ ها هى الزريبة .. أمامك . هل ترى أثرا للحريق ؟

ـ لا .

ـ أصبحنا نردد ما نسمع دون أن نعى أو نفهم ما نقول ؟

ـ ولكننى ..

ـ ما أيسر انتشار أخبار السوء . ما أسرع تصديق أهل القرية لتلك الأخبار .

نظرت نحو باب فاطمة . أطل فى ذهنى وجه صالح :

ـ صوت فاطمة عندى أعذب من أغنية رقيقة يحملها الى راديو الأستاذ محمد .. قلت لها ســـأدللك وأغندرك . وضعت طرف طرحتها بين أسنانها .. قالت لو كان أبى حيا . أو كان لى أخ لأخذ بثأر أخى .. أدركت من قولها ان مهرها فى كفة .. وثأر أخيها فى كفة أخرى .

تلفت حولى . لماذا بدت القرية فى عينى ضيقة ؟ انكمشت ؟ أين رحابتها و .. ؟ صارت سجنا ؟ الى متى سيظل هذا الاختناق ؟ :

ـخوف حواسنا يخلق التوتر . الضباب . الكآبة . تخفى عن أعيننا حقائق الأشياء .

من صاحب هذا القول ؟ الأستاذ محمد ؟ صالح ؟ نوارة ٠٠!
بنت الأكابر ٠ حدثنى أبى كثيرا عن شبابها الذى لا يشيخ ٠ جمالها الباهر ٠ المحن التى تلاحقها منذ ميلاد العالم :

ــ من هناك ؟

صوت من هذا ؟ أحد الخفراء ؟ عاد كل واحد منهم الى دركه ؟ انني أعلم ان أحدا منهم لم يعد يغادر داره عقب أذان العشاء ٠ أعرف أصــــوات الخفراء جميعا ٠ أســــتطيع أن أميزها من بين مئات الأصوات و ٠٠ :

ــ ألم تسمعى ٠٠ ؟

ماذا أقول له ؟ هذا الصوت غريب عن أذنى ٠ لا أعرفه ٠ لكن لماذا طعننى بسؤاله فى تحد ؟ ما سر انقباض قلبى هكذا ؟

شددت قبضتى على الرواسة ٠ درت حول نفسى ٠ تطلعت الى الوجوه الثعلبية ٠ عيونها تبرق ٠ تطل منها مخالب وحشية ٠

امتدت يد تمسك سكينا لامعا ٠ قطعت الرواسة ٠

٢

فى العيون أشواك أقسى من الدمع ٠ الألم ٠ الشكوى ٠ لماذا ظل أهل القرية ساهمين ؟ شلت كلماتى ارادتهم ؟ عطلت فيهم كل شيء ؟ لم أنم طوال الليل ٠ ظللت أتقلب على فراشى ٠

منذ يومين جلس ابنى الأكبر على المصطبة التى بجوار الباب ٠ راح يقرأ لصبية القرية قصة عنتر العبد الأسود الذى دافع عن دياره٠

تنحنح صالح :

ــ أصبح كل منا فاقد الاحساس بغيره تماما ؟ مادمنا مشتتين٠ متفرقين ٠ لن نستطيع اعادة ما ضاع ٠

هز عبد الحق كتفيه :

ـ سمعنا كثيرا مثل هذا الكلام ·

لم يلتفت صالح لقوله :

ـ بدأ الأمان يتضاءل · خاصة بعد أن سرق اللصوص بقرة بكر ·

اعتدل الأستاذ محمد فى جلسته :

ـ نستطيع أن نسترد حقوقنا بمنطق القوة ·

هتف عكاشة :

ـ أية قوة لدينا ·· ؟ مخلوف سوف يرد الينا كل ··

ـ كيف يساعدنا ·· ؟ لأجل سواد عيوننا ؟ جاء الى قريتنا لتحقيق مصالحه الشخصية ·

هرش طبال القرية قفاه :

ـ يخيل الى أن ندفع للصوص ·· أتاوة ونسد أفواههم ·

ـ أى رجل لديه ذرة من الكرامة والشهامة ·· يقبل هذا ؟

ـ اذن ·· نسكت ·

ـ السكوت أقصى أنواع الموت ·

تنهد عبد الحق :

ـ هذا قدرنا ·

ـ لماذا لا ننظر الى الأشياء على حقيقتها بدلا من الاستسلام والحزن وأحكام القدر ؟

نظر طبال القرية نحو عبد الحق :

ـ ما رأيك ؟

ـ أنا مثل أهل القرية ·· أول من وافق · وآخر من عصى ·

قلب صالح كفيه :

ـ ما هذا الكلام يا جماعة ؟ أنا غير موافق على حكاية الاتاوة ·

ـ لا داعي لأن نسميها أتاوة ·· نعتبرها ·· هدايا ·

ـ هدايا ·· فردة ·· تعنى أتاوة ·· مادام الانسان مكرها على تقديمها · كيف نقبل الهوان ؟ ذنب الذل لا يغفر ·· !

تساءل عبد الحق :

ـ لماذا لا نتفق مع قطاع الطرق ؟

ضاقت عينا محمد افندى ·· هز رأسه :

ـ ماذا تعنى ·· بالاتفاق ؟

ـ نقول لهم كلمتين ·· ربما تطيب خاطرهم ·

ـ اللصوص لا يهمهم الا أن يعبثوا بشرف قريتنا

ـ لذلك فانني أقترح ··

ـ كيف نتفق مع أناس يفرطون في عرضهم مقابل سيجارة « ماكينة » بصلة جافة تشتهيها نفوسهم للمائعة على الدوام ·

تسلل صوت مشروخ :

ـ نتفق معهم ·· نكون حذرين ·

هتف صالح ساخرا :

ـ كيف نتفق معهم ؟ نذهب اليهم في العزبة ·· راكعين ؟ · نمد أيدينا لتصافح أيديهم الملوثة بدماء الحسيني بن نوارة وأخي فاطمة و ·· ؟

ـ انهم يغدورن في أية لحظة · ليس للمبادىء أية قيمة في سبيل تحقيق مصالحهم ·

ضرب طبال القرية فخذيه بيديه :

ــ ما الحــل ؟

ملأ الغضب وجهى . سنبدأ المناقشة من حيث انتهينا ؟ ننتهى من حيث بدأنا ؟

قال الشيخ يوسف :

ــ نريد قرارا حاسما

أمسك عكاشة ياقة جلبابه الزفير :

ــ اننى اقترح تأجيل اجتماعنا . ربما اتخذنا قرارا الآن .. ثم نندم بعد ذلك على اتخاذه .

تواثبت العيون الحائرة بين وجهى الشيخ يوسف وعكاشه . ما هذا الذى يحدث ؟ واحد يطالب بقرار حاســـم .. آخر يطلب التأجيل .. ؟ الى متى سيظل الحديث . الاجتماعات تشرق بنـــا وتغرب ؟ كل يوم نتداول الرأى . نوازن بين النتائج ثم .. ؟

أقبلت سيارة تتبختر كالبطة التى أجادت زوجتى تزغيطها وتسمينها فى رمضان الماضى . هزع زاهر نحوها . فتح بابها . أطل وجه سامى .

وضع يده على كتفى :

ــ بلغنى أن المتشردين سرقوا بقرتك أمس .

ــ يجب ان نتوقع كل شىء ما دمنا ..

ــ ليس أمامنا سوى أن نصبر كما صبر أولو العزم .. أليس كذلك يا شيخ يوسف ؟

ــ صبرنا .. لم يظهر للفجر شراع

ــ أنتم بشر .. خلقتم من طين

ماذا يعنى سامى ؟ يقدر ظروفنا ؟ يظن أننا ضعفاء ؟ الى متى سنواجه الخطر وندفع الثمن ؟ جاء الى قريتنا ليفتح محلا لبيع التفاح وأدوات العطور والزينة ؟ يملأ جيوبه بنقودنا و ٠٠ ؟ لماذا لا يمد الينا يد المساعدة ؟

أخرج من جيبه ولاعة ذهبية ٠ أشعل سيجارة غليظة بلون الشيكولاته :

ـ سوف نضع حدا لكل ما يقوم به اللصوص ٠

ـ متى ؟

ـ عندما يجىء الوقت المناسب

ـ متى يأتى الوقت المناسب ؟

ابتسم زاهر :

ـ بعد أن تدرس احتمالات المستقبل و ٠٠

بعد شهرين من مجىء سامى الى قريتنا ٠ كنا نجلس أمام دار محمد أفندى ٠ أقبل زاهر :

ـ الا تعرفون سامى ؟

ـ كيف لا نعرفه ؟ انه متحدث بارع ٠ يسحر العقول ٠ لكلامه مذاق السكر ٠ يذيبه بلسانه ٠ يصبه فى الآذان شهدا ٠

لوحت نوارة بيدها فى وجه سامى :

ـ كيف نصبر ٠ طاقتنا محدودة ؟

لم يلتفت الى سؤالها ٠ وضع على عينيه نظارة شمسية

فى الصباح قابلت الأستاذ محمد :

ـ لماذا تبدو عيناك حمراوين ٠٠ هل ٠٠٠ ؟

ـ لم أبك · لست أول ضحية · اذا استقر الخوف فى الصدور فلا مكان للنوم فى العيون ·

ـ أتعشم أن نصل اليوم الى قرار أو حل ·· والا فستظل المأساة فى حياتنا الشىء الراكد ·

زحف بصرى على جلباب زاهر البوبلين الأبيض · استقر على حذائه الأسود اللامع ·

ـ سامى رجل عبقرى · كلامه يفتح العقل على أشياء جديدة · أخبرنى انه بالحوار مع قطاع الطرق ·· سوف تتم كل الأمور ·

أقبل مخلوف · نهض عكاشة من مكانه · أمسك بذيل جلبابه الزفير مسح طرف المصطبة أشار لمخلوف بالجلوس · اتكأ بمرفقيه على ظهر حماره الأجرب :

ـ **سأظل واقفا :**

نظر نحو صالح ·· أضاف قائلا :

ـ لماذا أرسلت فى طلبى ؟ هات ما عندك ·· أريد العودة بسرعة · لقد أغلقت الدكان ·

تقابلت عيناه بوجه سامى · لوى كل منهما عنقه · الأستاذ محمد يقول لنا :

ـ سامى ومخلوف تاجران · رغم اختلافهما الذى لا يخفى عن العيون فان الاثنين أفكارهما متوازية · لا يمكن التقاؤها · الاثنان متفقان على امتصاص خيرات قريتنا · جعل الوضع فيها معلقا ·

التفت نحو الشيخ يوسف ·· منذ أيام قلت له :

ـ هل تصدق يا مولانا أننى تركت كتابا عند مخلوف وذهبت الى المسجد لأصلى الظهر · عندما عدت اليه وطلبت منه الكتاب أنكر أننى تركت لديه شيئا ·

ـ لا أمانة لمن لا دين له ·

رسمت أصابع قدمى عكاشة الحافيتين فى التراب خطوطا · عندما جاء سامى الى قريتنا سألنا الأستاذ محمد :

ـ ما رأيك فى سامى ؟ أليس أفضل من مخلوف النجس ؟

ـ لقد استبدلنا مستنقعا بمستنقع

تنهدت نواره · رمت مخلوف بنظرة مدببة :

ـ أعلمت بما حدث أمس ؟ سرق اللصوص بقرة بكر · لم يعد الوضع يحتمل السكوت أليس كذلك ؟

ـ بلى ·· ولكن التريث

التريث ؟ كان نقطة البداية نحو الانحناء · لم يبق الا أن تدوس أقدام المتشردين كرامتنا ·

هتف الأستاذ محمد :

ـ اننــا ··

ـ انتظــر

ـ شاخ الانتظار

كلما تحدثنا مع مخلوف فى موضوع قطاع الطرق يصغى الينا بأذن باردة ·· يقول اصبروا · مخلوف له لؤم حارة مسـدودة · حينما طب على قريتنا كنا نبحث عن عود القش الذى يتعلق به الغريق :

ـ اللصوص لديهم بنادق و ··

هتف صالح :

ـ ماذا تعنى بقولك هذا ؟ سنشترى منك البنادق ·· جئت لتساعدنا أم تزرع الخوف فى قلوبنا ؟

ـ أننى ألفت انتباهكم الى ··

ـ لماذا تشكك فى قدراتنا ؟ أغرقتنا فى بحر من الضعف

ـ كنت أسدى اليكم النصيحة

هزت نواره رأسها :

ـ بل كنت تراوغنا ·· لتكسب مزيدا من الوقت ·· و « تشفط » نقودنا ·

ـ اننى أعدكم

ـ وعدتنا كثيرا · سئمنا التسويف · كل مرة تعدنا · ونقول معك حتى باب الدار ·

زفر محمد أفندى :

ـ الى متى سنتحمل اهانات المتشردين ؟ كل يوم ننزف دماء جديدة · تتجدد الأحزان · تحفر قبرا فوق قبر ·· وانت ولا هنا ؟

ـ أصبحت قريتنا حديث السامرين على مصاطب القرى ·

ـ متى تعود مباهج الأيام الماضية ؟

فى ذيل كل عبارة تساقطت مصمصات الشفاه · صارت الكلمات حتى الهامسة تقطر ألما ·· ؟ سنتحسر على ما فات ؟ الى متى سنعيش فى ظلال الذكريات · ؟ ننتشى وننسى · أوشكنا أن ننسى أنفسنا ·· ؟ كان أبى يقول ·· رغم ضنك الحياة ·· كانت حياتنا كلها ألفة ومودة · الاصدقاء كانوا أخوة · أشقاء الجيران كانوا أباء وأمهات وأخوة · الحياة يحوطها الأمان والطمأنينة ·

نظرت نحو الغنم التى ترعى العشب على شاطىء الترعة · مخلوف وسامى لا يلقيان أدنى اهتمام الى ما يجرى حولهما ·

عبث صالح بعصاه بين قدميه • أشار نحو مخلوف :

ـ جئت الى قريتنا بحجة مساعدتنا

ـ لكن الواقع دائما أكثر تعقيدا من الحقائق المجردة

ماذا يعنى مخلوف بقوله هذا ؟ لماذا تبدو اجابته مائعة ؟ :

ـ نريد قولا واضـــحا

ـ ماذا تعنى بالوضوح ؟

ـ لقد نفد صبرنا اما أن تضع حدا « لبجاحة » قطاع الطرق واما أن ترحل عن قريتنا •

ابتسم الشيخ يوسف :

ـ ماذا قلت •• يا مخلوف ؟

هز سامى رأسه • نزع نظارته الشمسية عن عينيه • لمعتا • أدرك أن الشيخ يوسف قد أغلق باب المراوغة أمام مخلوف ؟

سار سامى نحو سيارته • انشقت شفتاه عن ابتسامة • سحب مخلوف حماره • لماذا لم ينتظر ليسمع بقية حديث صالح ؟ لماذا لم يلتفت لسؤال الشيخ يوسف ؟ كنت أريد أن أروى له كيف سرق اللصوص بقرتى •• !

كان خالى يقول :

ـ عزرائيل لا يتريث ليبكى مع أهل الميت

اعترض الشيخ يوسف طريق مخلوف :

ـ لم تجب على سؤالى

ـ كيف أخرج لملاقاة المتشردين دون دليل ؟ لماذا لا يأتى معى أحد ليشهد أننى ؟

ـ هل مقتل بعض اللصوص ؟ عدم مجيئهم الى قريتنا بعد اليوم ٠٠ فى حاجة الى شهادة ؟

تقابلت عيناى بعينيه الزرقاوين ٠٠ هز كتفيه ٠٠ تنهد ٠٠ همس :

ـ سأحاول

٣

قلب الشيخ يوسف كفيه :

ـ هل خرج مخلوف ليلة أمس لملاقاة قطاع الطرق ؟

هتف عبد الحق :

ـ نعـــم

هز صالح رأسه :

ـ من الذى أخبرك أنه فعل ؟

ـ ٠٠٠

ـ لدى شك فى خروج مخلوف لملاقاة المتشردين ٠

انه يرتدى قناعا على وجهه الأحمر ٠ لا نعرف اذا كان راضيا أم غير موافق على قطع دابر اللصوص؟ رحم الله الحسينى بن نوارة :

ـ هل أنتم مجانين ؟ كيف يمنع مخلوف اللصوص من السطو على قريتنا ؟ لو فعل هذا لذبح الدجاجة التى تبيض له ذهبا ٠

تسللت اصابع طبال القرية تحت طربوشه :

ـ سمعت عكاشة مساء أمس يقـول : رأيت مخلوفا ينظف بندقيته أم روحين ٠ لابد أنه سيخرج لملاقاة قطاع الطرق ٠

ـ هل نسينا حكاية حريق زريبة صالح ؟

ـ لا أحد يبارى عكاشة فى نشر الشائعات · خاصة اذا كانت تتصل بشجاعة مخلوف · أكيد أنه أعطاه قطعة ملبن أو سيجارة لف ·

ـ أأخبرك عكاشة أن مخلوف كان ينظف بندقيته ؟

ـ نعم ·· واذا أنكر ·· سأغرس أصبعى فى عينيه الوقحتين

الأسبوع الماضى شتم عكاشة الشيخ يوسف · قبض صالح على كتفه هزها بعنف :

ـ من الأفضل ان تحفظ لسانك · أن ترده عن الشيخ يوسف · لم يبق الا أن « تبوق » فى مولانا ؟ لو عدت الى ذلك مرة أخرى سوف تنال منى ما لا يرضيك ·

ـ الشيخ أراجوز ·

ـ ماذا تقول يا نجس ؟ كيف تتطاول على الرجل الذى تتطلع اليه القرية بكل احترام وتبجيل ؟

انهالت اللكمات على جسد عكاشة كالمطر · أحاط رأسه بذراعيه · تكور حول نفسه · انطلقت الضحكات ·

لمحت سحلية تزحف بين أعواد الغاب على شاطىء الترعة · عندما تدخل محمد أفندى · خلص عكاشة من أيدى أهل القرية ·· هتف صالح :

ـ والله لولا أن يلومنى عقلاء القرية لقتلت عكاشة بالبلغة كالبرص ·

ـ كيف يقول الشيخ يوسف ·· ان مخلوف رجل خنزير ؟ الم ير جلبابه الأبيض الذى يرتديه ؟

ـ من ير واجهة دكانه المزدانة ·· لا يصدق انه يخفى بلاوى ·

نهضت نوارة واقفة :

ـ هل تعتقدون أن مخلوف جاد فى عزمه على ... ؟

ترامى الى الآذان صوت مسرسع :

ـ كل شيء جائز ..

هززت رأسى .. أمس قرأت فى عين مخلوف تكذيبا لما قال . كلما حدثه أحد عن شيء يبسط له يديه :

ـ كم ستدفع ؟

ضرب الأستاذ محمد فخذيه بيديه :

ـ غدا سيأتى مخلوف بأكذوبة جديدة .. لقـــد حذرتكم مرارا . مخلوف وسامى يتاجران بآمال قريتنا . أين ما يرددانه عن حقوق الانسان وكرامته ؟ يقتصر عليهما هما وأقاربهما فقط ؟

عادت كلمات قبانى القرية تدوى فى أعماقى :

ـ مخلوف وسامى يأتيان الى قريتنا كتاجرين . يغادرانها ومعهما نقودنا . يتركان وراءهما أفكارهما ... سخافاتهما والفرقة بين أهل القرية .

٤

امتلأت القرية بالصراخ . من شقوق الأبواب والنوافذ اطلت عيون مذعورة :

ـ ماذا حدث ؟

ـ تسلل اللصوص الى القرية . سرقوا من بيت محمد أفندى راديو . طشتا نحاسيا ودجاجتين .. سرقوا حمار أحمد عبد العال.

دعك عبد الحق صدره بيده . نظر الى الأستاذ محمد :

ـ ألم أقل لك ·· نقدم الى اللصوص هدايا ·· لم تسمع قولى ·· آ

ـ كرامتنا فوق كل اعتبار ·

ـ هذا قدرنا ··· اذن ·

لوحت فى وجهه :

ـ نضع أيدينا على خدودنا ونقول ·· قدرنا ·· ؟

ـ ماذا فعلت ليلة أن سرق قطاع الطرق بقرتك ؟

ـ كنت وحيدا ·

استقرت يد نوارة على كتفى :

ـ قد يقهر المتشردون بكرا بمفرده · لكنهم لن يقدروا على قهر أهل القرية ·

طفا على الجرن صمت لزج ··

اقبل طبال القرية ·· لاهثا :

ـ لقد حرق قطاع الطرق جرن جبريل · انطفأت النار فى رمية الأرز منذ دقائق ·

شىء من الغضب · الألم · المرارة تتدفق فى حلقى · طار خيالى الى جرن جبريل · كان ينتظر دراس الأرز · تذريته · ملء الزكائب بالحبوب · خرج من الحصاد بلا حصاد ؟ بماذا يطعم أطفاله ؟ كان يعيش « بالتيلة » ·/· ! يدبر نفسه طوال السنة من زراعة الأرز · من أين سيسدد ديونه « المتلتلة » ؟ كثيرا ما شكا لى من كثرة الأولاد وقلة موارده المالية ·· !

تهالك طبال القرية على أحد أكوام السباخ·الى متى سننتظر؟ لم يعجب هذا الحال أحد · لم يعد أحد يعنيه أن يسأل ؟ هل أهل

القرية الانتظار ؟ لم تعد هناك أسرار تخفى عن عيون الأطفال · على شفاههم الصامتة تساؤلات أذل اللصوص أعناق الرجال ؟ الى متى سنتجرع الانتظار ومرارته ؟ متى نتخلص من هذا العار ·· ! :

ـ قلنا ان محمد أفندى رفض دفع اتاوة للصوص ·· أحمد عبد العال · جبريل ظلا صامتين طوال اجتماعنا ·· أول أمس ·

ضحك صالح :

ـ دفعا ثمن صمتهما ·

ـ أتضحك ·· ؟

ـ لم لا ؟ ألا يكفى أن الوافدين كمموا الأفواه ؟

ـ ماذا تنتظر من أناس مغلوبين ·· فقدوا ارادتهم ·· !

هتف نوارة :

ـ اذا كان المتشردون قد سلبونا الأمن والطمأنينة ، فاننا ما زلنا نملك الأمل ·· لن ينضب في قلوبنا أبدا ·

ابتسم طبال القرية :

ـ لقد حلمت أن أهل القرية قبضوا على لصين و ··

قطب الأستاذ محمد جبينه :

ـ صارت الأحلام حبلا نعلق عليه الأوهام والآمال ؟

ـ هل علمتم بما حدث ؟

حاصرت العيون المتلهفة وجه فاطمة :

ـ لم يذهب مخلوف لمقابلة اللصوص ·· اليوم سمعت حضرة العمدة يطلب منه مغادرة القرية ·

هتفت عشرات الأفواه :

ـ العمــدة ٠٠ !

ـ نعــم ٠٠

ابتسم صالح :

ـ ماذا قال مخلوف عندما ٠٠ ؟

ـ كاد أن يبكى لكن العمدة أمره بسرعة الرحيل عن القرية ٠ شد ملامح وجهه الدموى ٠٠ أراد أن يخفى غيظه وحقيقة انفعالاته ٠٠ ثم ترك سراى العمدة بخطوات مضطربة ٠

فرك محمد أفندى يديه :

ـ ألم أقل لكم ٠٠ مخلوف يريد أن يلعب بنا ؟ لكن أبصاركم ضعفت عن الرؤيا ٠٠ بقاء اللصــوص فى العزبة ارتبط بوجود مخلوف فى قريتنا ٠

ـ كيف ؟

ـ بعض قطاع الطرق أقارب سامى ومخلوف ٠

لماذا هز الرجال رءوسهم ؟ فهموا ما قاله الأســتاذ محمــد ؟
نظر نحو اللفافة التى تحت ابط زاهر :

ـ ما هذا ؟

ـ علبة حلاوة ٠ اشتريتها من دكان سامى ٠

ـ كل شىء أصبح مصنوعا ٠٠ يباع فى علب ؟ تلتصق به مواصفات ٠٠ ما عدا الصدق ؟

وسد طبال القرية رأســه ذراعيه ٠ الأسبوع الماضى قابلنى حانقا ٠٠ صرخ فى وجه زاهر :

ـ سامى يأكل الأرز المعمر الغــارق فى السمن البلدى ٠ نحن لا نجد السمن النباتى ؟

ـ سيتحقق لنا ما تهفو اليه نفوسنا ٠

ـ سامى يلعب على الحبلين ٠

ـ سامى يكره أقاربه من المتشردين ٠ يقول انهم كالكلاب الجربانة ٠ الأيام قادمة ٠٠ لكى ٠٠ وقد وعدكم ٠

ـ اننا لا نطلب وعدا ٠

ـ ماذا ٠٠ اذن ؟

ـ التنفيـذ ٠

مطت فاطمة شفتيها :

ـ كيف ننتظر خيرا من مخلوف وسامى ؟ انهما يصطادان فى الماء العكر ٠٠ تجارتهما ٠٠ الأمور المعوجة ٠

انطلقت صرخة أوزة فوق أحد السطوح ٠

تنهدت نوارة :

ـ بعد أن كان اللصـــوص يخطفون من دورنا البط والأوز والدجاج ٠٠ أصبحوا يحرقون محصولاتنا ٠٠

هتف زاهر :

ـ ما رأيكم فى حل مؤقت ؟

شدت نوارة قسمات وجهها النيلى :

ـ الحلول الوقتية مخدرة ٠ سئمنا انتظار الصباح الضبابى ٠٠ الحل فى أيدينا ٠٠ سنختار الطريق ٠٠ النهاية ٠

ماذا يدور برأس نوارة ؟ لماذا تفيض كلماتها بالثقة ؟ لماذا نطقت بعبارتها الأخيرة على مهل وهى تنظر نحو زاهر ؟

عندما صحبت زوجتى الى طبيب الوحدة المجمعة :

ـ ضعف ناشىء عن الانهاك ٠

ــ لماذا لا تكتب لها بعض الأدوية المقوية ؟
ــ من الأفضل أن تنبع المقاومة من داخل الجسم .

٥

ــ رحل مخلوف وأقاربه عن القرية .. أغلق العمدة دكاكينهم وخماراتهم بالشمع الأحمر .

طعن عكاشة زاهر بنظرة مسارية :

ــ نحن السابقون .. وأنتم اللاحقون .
ــ ابصق من فمك .. يا نجس .
ــ لا تتحدث معي بعد اليوم .. يا صبي تاجر التفاح و ..

رنت صفعة من يد زاهر على وجه عكاشة . وضع يده على صدغه فوق الصفعة . ارتفع حاجباه . وثب كالثعبان . أطبق على عنق زاهر .

انقسم الحاضرون الى جناحين . ارتفعت العصى . تعالت الصرخات . صار أهل القرية مجموعة كتاكيت فتح لها قفصها ؟ تدخل صالح :

ــ يا عالم .. هل نسيتم مصيبة قطاع الطرق الثقيلة على القلوب ؟ بث مخلوف وأقاربه الوقيعة بيننا ؟

مسح عكاشة خيوط العرق على وجهه بكمه الواسع :

ــ تتحدثون عن مخلوف وكأنه أكل أموال أبيكم . ؟ لماذا لم تذكروا سامي بسوء ؟ يريد منكم أن تركعوا .. تذهبوا الى عزبة اللصوص وتتفاهموا معهم .. !

زعق الشيخ يوسف :

ــ مخلوف وسامي يريدان اشعال الفتنة بيننا . لعن الله الشيطانين اللذين يفسدان بين الأخوة والأصدقاء .

هتف محمد أفندى :

ـ ألم نخجل من أنفسنا ؟ لو سأل كل واحد نفسه ·· لماذا يتشاجر مع أخيه أو جاره · هل سيجد جوابا شافيا ؟ هل سيعثر على مبرر مقنع ؟ لماذا لا نوفر كل هذا ·· لملاقاة اللصوص ؟

ارتفع صوت خشن :

ـ كلام صالح · الشيخ يوسف · الأستاذ محمد كلام صحيح· يساوى وزنه الذهب ·

اقتربت من الشيخ يوسف · محمد أفندى · صالح :

ـ لا أحد من أهل القرية يسمع اليكم ·· كل واحد منهم يريد أن « يفش » غليله فى أى انسان يقابله ·

دوت صرخة استغاثة · كفت العصى عن التصـادم · وقف الرجال يبحثون عن أنفاسهم اللاهثة :

ـ ماذا هناك ؟

ـ أشعل اللصوص النار فى عريشة أحمد عبد العال ·

انطلق أهل القرية نحو الحريق :

ـ انقذوا الماشية التى فى داخل العريشة أولا ·

اقتحم صالح النار · نظرت نحو فاطمة · ما هذا الذى يرتعش فى عينيها ؟ خوف ؟ دعاء ؟ زحفت على شفتى ابتسامة ·

أطل وجه صالح · سحب جاموستين وراءه · انتقل بصرى الى وجه فاطمة ·· أين شحوب وجهها ؟ الارتعاشة التى كانت تملأ حدقتيها ·· ؟ حلت محلها اشراقة و ·· ؟

زادت الابتسامة على شفتى اتساعا ··

التقط أحمد عبد العال رواستى الجاموستين من يد صالح فى لهفة ٠ أم عثرت على طفلها الوحيد المفقود فى زحام المولد ٠

هوت العصى على النار ٠ سكبت النساء البلاليص المملوءة بالماء على ألسنة اللهب ٠ خمد الحريق ٠ جلس الرجال حول العريشة ٠٠ نكسوا رءوسهم ٠ حل التساؤل محل الارهاق ٠ الغضب ؟ لماذا وضع كل واحد عصاه بين قدميه اللتين غطاهما الهباب ؟ يخشى أن تلتقى عيناه بعينى جاره ؟ يفكر فيما حدث ٠٠ !

هز الشيخ يوسف رأسه :

ـ لا يمكن للأخوة أن يتفرقوا ٠ قد يختلفون بعض الوقت ٠ لكنهم جسد واحد ٠ سرعان ما تلتئم أجزاؤه ٠

عاد الصوت الخشن :

ـ الفاتحة لحضرة النبى ٠ ولأهل البيت٠٠على صفاء النفوس٠

وضع محمد أفندى يديه على كتفى زاهر وعكاشة :

ـ الموقف يتطلب منا أن نصفى خلافاتنا الداخلية حتى لا يكون المتشككون شوكة فى ظهر القرية ٠ لماذا لا يلتئم الجرح ؟ يجتمع الشمل المبعثر ؟ فقد آن الأوان لكى ٠٠٠٠٠

هتفت فى لهفة :

ـ كيف ٠٠ ؟

ـ سكة أبى زيد كلها مسالك ٠

ـ ما هذا الذى ٠٠ ؟ هل ٠٠ ؟

ـ نعم ٠ ما زالت لدينا القدرة على السخرية ٠٠أليس هـذا جواب سؤالك ؟

كيف عرف سؤالى قبل أن أكمله ؟ قرأ ما يدور برأسى ؟

ـ لماذا تركت البقرة للصوص عندما ٠٠ ؟

ـ عندما رأيت السكين لامعا ٠٠ ما كان بامكانى الا أن ٠٠

ـ على العمـــوم لو حاول المتشردون المجىء الى القرية مـــرة أخرى ٠٠ سيكون آخر خطوهم نحو قريتنا ٠

٦

الحيرة تلقى ظلالها على القـــرية ٠ تصخب فى العيـــون الساكنة تساؤلات ٠ ماذا سيفعل قطاع الطرق بعد أن أشعلوا النار فى دار نوارة الليلة ؟ ترامى الى مسامعهم تهـــديدها ؟ لقـــد توعدهم صالح والأستاذ محمد ٠ لماذا نوارة بالذات ؟

منذ قليل اقترب عبد الحق من نوارة :

ـ كيف نقتلع الشوكة المغروسة فى قلوبنا ؟

ـ العيون العمياء لا تبصر الشمس ٠

كل شىء ملقى على الأرض فى تراخ ٠ الكلمات تطير بأجنحة الصـــقور لا شىء يوقفها ؟ الكلاب تنبح ٠ تتـــواثب فوق السطوح بالنهار ٠ يموت نباحها اذا حل الليل ٠٠ !

اسند عكاشة راسه الى حائط نوارة المتهدم :

ـ لم تنفذ وعدك ٠٠ يا صالح ٠٠ بعد أن أعلنت ٠٠

لماذا لم يتم عبارته ؟ كلماته تفوح منها السخرية والتشفى ٠

مصمص بشفتيه أضاف :

ـ كان وجود مخلوف بيننا يجلب الينا شيئا من « الونس » ٠ لقد أحال اللصوص دار نوارة الى أطلال ٠

ـ سنعود مرة أخرى الى الحديث عن مخلوف · ؟ عندما أسمع سيرة قطران هذا ·· أشعر بالقيء · لو قدم كل واحد فى القرية قالب طوب · سنعيد بناء دار نوارة ·

ـ اننى لا أتحدث عن اعادة بناء بيت نوارة · لكننى أتساءل·· ماذا سنفعل مع قطاع الطرق ·· وأنت لا تملك بندقية ؟

ـ يكفى أن أملك الارادة والشجاعة ·

ـ لم تجب بعد على سؤالى ·

ـ سوف تعرف ·· ماذا سنعمل قريبا ·· قريبا جدا ·

ـ كل مرة تناقش و ··

ـ بدون نقاش لا يمكن التوصل الى نتائج سليمة ·· خاصة فى الموضوعات ذات الأهمية الكبيرة ·

ـ ماذا تنوون ؟

ـ ستعلم ·· عندما تعلن البندقية كلمتها ·

بندقية ؟ من أين سيحصل عليها صالح ؟

طافت عينا محمد أفندى بدار نوارة المحترقة · عقد يديه على صدره :

ـ لقد ارتدى اللصوص رداء التحدى ·

شدت نوارة قامتها · سهم على وشك الانطلاق :

ـ أيظن الوافدون عنـــدما يشعلون النـــار فى دارى أننى سانحنى ؟

هزت رأسها بسطت يدها ·· قبضتها ·· متوعدة :

ـ طيب ·· طيب يا أولاد الملاعين · لو كان عمركم أردب « ربه » صبركم على ·

لماذا تحدث محمد أفندى • صالح • نوارة بثقة كبيرة ؟ اتخذوا قرارا ؟ ألا يحق لنا أن نعرف •• ؟ ألسنا من أهل القرية ؟ يخشون أن ينتشر الخبر ؟ يصل الى آذان قطاع الطرق ؟

تطلعت الى السماء • لو فلت القمر من قبضة السحب الداكنة ؟ سيغسل نوره الحليبى كل شيء •• حتى الأحزان ؟

تذكرت حوارا دار بيني وبين نوارة عقب سرقة بقرتي :

ـ أصبح الخلاص متعذرا ؟

ـ لن نتخلى عن صلابتنا مهما اعترضتنا الصعاب • يريد اللصوص اذلال قرية لم تعرف الذل ؟

ـ الى متى سنصمت ؟

ـ أرجو ألا يتسلل اليأس الى صدرك • قد يتحول الصمت فى لحظة الى صخب عنيف •

ـ متى ؟

ـ علمتنى الحياة أن أصبر • أصبر طويلا • ألا أفقد الأمل •

مال الأستاذ محمد على أذن جبريل • لماذا هز رأسه ؟ يعلن عن فهمه و •• ؟ ماذا قال له ؟

اقتربت من نوارة :

ـ ما هذه الدموع •• أتبكين ؟

ابتسمت :

ـ ليست الدموع عنوان الضعف •

ضعف ؟ من قال هذا ؟ تتوالى عليك المصائب • كانت عظمتك أنك استطعت أن ترتفعي فوق كل الكوارث •• !

٧

كنت أقرأ سيرة كفاح عنتر · سرت في عروقي الحرارة والحماس بعد صفحات قليلة ·· ارتفع صياح أهل القرية في الجرن · التقطت العصـــا :

ـ ماذا حدث ؟

ـ أخبرنا قباني القرية أن الوافدين وضعوا أيديهم على أرضنا المجاورة لزمام العزبة · قتلوا ابن الشيخ يوسف الأوسط عنـدما رفض أن يترك الأرض لهم ·

هبط صالح من فوق كوم السباخ · أدركه صوت مشروخ :

ـ على أي شيء استقر رأيكم ؟

ـ لن ندفع اتاوة · أرضنا لابد أن ترجع ·

ـ واذا لم يردوا الينا أرضنا و ·· ؟

ـ سنرحب بالموت ترخيبنا بالحياة ·

ـ ماذا تعنى ؟

ـ الأمر لا يحتاج الى شرح · سوف نفاجىء قطاع الطرق و ··

ـ كيف ؟

ـ نضربهم بسلاحهم · فمن أراد أن ·· فليأت معنا ·· الآن ·· ومن لم يأت فعليه أن يذهب الى داره · أتريدون أكثر من الدم اشارة فوق الأرض ؟ سكين اللصوص ساخنة حمراء ·· ؟

ماذا يعنى صالح بقوله هذا ؟ أراد أن يعرف حقيقة أنفسنا ؟ اراد أن يعرى كل متخاذل في القرية ؟

نار الغضب تلعب في أغوار العيون · انطلق من الأفواه زئير يطالب بالثأر من المتشردين · اجتاحت الصدور أحقاد ضارية ؟ يتمنون

أن يتمكنوا من رقاب اللصـــوص ليكسروها · يحطموا رءوسهم · يدوسوها بالأقدام ·· ؟ أخيرا أدرك أهل القرية أن الحياة لم تعد لها معنى أمام « رذالة » قطاع الطرق ·· !

تقدم صالح · الأستاذ محمد · نوارة السيل الهادر · شددت يدى على العصا · صارت جزءا منها ؟ ماذا ستفعل بندقية نوارة والعصى والفئوس أمام بنادق الوافدين ؟ لو باع لنا مخلوف ست بنادق · أربع بنادق ؟ ماذا سيحدث لو فر أهل القرية أمام طلقات رصاص اللصوص ؟ يأتون ·· يحرقون دورنا ·· ؟ الذى يدخل « عركة » يضع فى اعتباره ·· يضرب يُضرب ·

حبات مسبحة الشيخ يوسف تتساقط بين سبابته وابهامه يبتهل الى الله أن ·· ؟

وقفت النساء · الفتيات · الأطفال فوق الأسطح · فى عيونهم دعاء · على وجوههم ظلال أمل ·· لو تحقق ؟

اختنق الشارع بالرجال · انتهز زاهر فرصـــة اقترابنا من داره · انسل من الباب · تلفت عكاشـــة حوله · أسرع الى مقهى المحطة ·

اقتربنا من الكوبرى · لماذا تشعبت روافد الطوفان ؟ صار قناة صغيرة فوق الكوبرى ؟ عاد الخوف الى صدرى ·· عارما ·

هتف محمد أفندى :

ـ كنت أتوقع هذا ·
ـ وما العمل ؟
ـ لن نتراجع ·
ـ لكن عددنا قليل ·
ـ ولو ·· يكفى أن أكثرنا لهم أرض ركبها قطاع الطرق ·

ـ هل سنوفق ؟

ـ لا تتعجل الأمور ٠

الظلام يبتلع كل شيء ٠ صمت الحقول ٠ شحوب وجهي ٠ ارتعاشة جسدي ٠ ألا يخاف الذين معي مثلما أخاف ؟ لكن خطواتهم توحي بعدم الاكتراث ٠

التفت نحو نوارة :

ـ ألست خائفة ؟

قبضت على بندقيتها :

ـ لم تخطر هذه الكلمة على ذهني ٠

أحس بالصدق في كلماتها ٠ ليست هذه أول مرة تخرج لملاقاة قطاع الطرق ٠ لكن لماذا تأخر جبريل ؟ ألا يعلم أن هناك رجالا ينتظرونه ؟ مصيرنا متوقف على مقدمه ٠ حياتنا محسوبة عليه بالدقائق والثواني ٠ لو تأخر أكثر من هذا ٠٠ ؟ ستصاب ترتيباتنا بالخلل ٠٠ !

تطلعت الى السماء ٠ النجوم تلمع على صدرها الناعم ٠ بعد قليل سيبزغ القمر ٠ وثب الى رأسي سؤال ٠ ماذا يكون موقفنا لو جاء اللصوص الآن و ٠٠ ؟

ربتت نوارة على ظهري ٠ نظرت اليها ٠ ابتسمت مشجعة ؟ قرأت الأفكار التي جالت بخاطري ؟ قبل ذلك أجاب محمد أفندي على سؤال لم ينطق به لساني ٠ الصدور يملأها الدخان ٠ الأنوف تزكمها رائحة كريهة ٠ كل انسان أتحدث معه أجده أقرب الى أعماقي ٠٠ مني ؟ يتحسس مشاعري ؟ يدرك ما في صدري ؟ دخلنا أعماق بعضنا عقب المصيبة التي حلت بنا ٠٠ دون أن نعلم ٠٠ !

أقبل جبريل يحمل بندقية ٠ التقطها صالح ٠ قلبها في يده قدم اليه عصا ٠ تقهقر الخوف في صدري ٠

اقتربنا من توتة صالح . زحفنـــا بين القنوات . همســت نوارة :

ـ ما رأيكم لو توارينا خلف هذه الساقية ؟

طفت صورة بقرتي في ذهني . آخر مرة كانت تجر هـذه الساقية . لو أحاط اللصوص بها .. ؟ لكن يأتون الى القرية . على بعد خطوات من داري و .. يسحبونها من يدي .. !

وضع صالح مقذوفين في حوصلة البندقية . وسدت نوارة ماسورة بندقيتها مدار الساقية . صوبت فوهتها صوب الطريق المؤدي الى العزبة .

رفرف قلبي بين الضلوع . ضاع الخوف ؟ ذاب بين الأجساد المتلاصقة ؟ تبخر عندما ملأت أنفاس الزرع . الأرض صدورنا !

همس الأستاذ محمد :

ـ نريد أن نقسم أنفسنا الى مجموعتين أو ثلاث . لنلتف . نفاجيء المتشردين .

هتف طبال القرية :

ـ ماذا نفعل اذا لم يأت قطاع الطرق الليلة ؟

تأبط صالح بندقيته . وهـو في طريقه الى أشجار الكافور المزروعة على الطريق :

ـ اذا لم يسـطوا على قريتنا الليلة فسـوف يهاجمون قرية أخرى .

أطل القمر الدامي من جوف الأرض . لو أخذ صالح بثـأر أخي فاطمة ..؟ كل آماله أن يتزوجها..! هل ستتحقق أحلامه..!

زحف القمر على صدر السماء . الى متى سننتظر ؟ لماذا لم يأت اللصوص ؟ قرروا عدم مغادرة العزبة الليلة ؟ الليل مثقوب

القاع · يطول · يمتد · تحول الى دهر ؟ فاض صبرنا · ملأ الحقد أعماقنا ·

وضعت نوارة يدها على ذراعى · احتبست الأنفاس فى صدورنا · اتسعت العيون · لمحت سيجارتين مشتعلتين تلمعان كعينى ذئب ·

همس الشيخ يوسف :

ــ ها هم قادمون ·· يبدو أنهم عشرة رجال ·

غرس الأستاذ محمد بصره بين أشجار الكافور :

ــ بل ثلاثة عشر رجلا · ابقوا حيث أنتم على أهبة الاستعداد

مالت نوارة على بندقيتها :

ــ سأطلق النار عندما يطلق صالح أول مقذوف من بندقيته·

أسرع أحمد عبد العال نحو صالح · تدفقت رخات الرصاص· ابتلعت صرخات الألم · قبض طبال القرية على كتفه · دار حول نفسه · سقط على مدار الساقية · راح يتلوى أمسك جبريل فخذه· أخذ يحجل · سقط على مقربة منى ·

تراجع قطاع الطرق · هتف صالح :

ــ انهم يهربون نحو العزبة ·

اندفعنا وراءهم · وقع بصرى على جثتى رجلين · التقطت بندقية أحدهما · أخذ الأستاذ محمد الثانية · وثب صالح على رجل ثالث كان يعوى كالكلب ·

نظر صالح نحو أرض فاطمة · ابتسم · سيقدم هذا الرجل الجريح ·· مهرا لها ؟

ماذا سيفعل أهل العزبة عندما تصل اليهم أنباء ما حدث الليلة ؟ سيقبلون هذه « العلقة » المباغتة ·· دون أن يحركوا ساكنا ؟

٨

أسندت ظهرى الى سور الكوبرى الحديدى ـ النور يتلألأ فى سماء القرية . يعانق الغناء والأغاريد ؟ رميت بصرى نحو العزبة . الظلام يكفنها . ينطلق من جوفها نواح وعويل . طوت ليلة حزينة ؟ ما حدث أمس أشفى من نفسى غليلا .. ؟ لأول مرة أنعم بالنـــوم والاطمئنان .. !

أحس برغبة ملحة فى أن أضحك كثيرا . أريد أن أبتلع مرارة السنوات الطويلة الماضية .. !

دوى طلق نارى . وصل صالح الى دار فاطمة ؟ سيحملها أمامه على حصانه الى بيته ؟ عنـدما كان ابنى الصغير يسمع اللصـوص يطلقون الرصاص فى شوارع القرية .. يسألنى :

ـ من الذى سيتزوج ؟

أسرعت نحو دار العروس . الضوء يتدفق من النوافذ المفتوحة. حينما كان يحل الظلام . كنا نغلق الأبواب و .. من ينام لا يملك أن يفتح عينيه على ميلاد يوم جديد .. أما اليوم ... !

اندفع الأطفال الى الشوارع . يلعبون . نفضوا عنهم خوف . كآبة أعوام مضت . حرموا فيها من اللهو واللعب .. !

واجهة دار فاطمة « تلعلع » بالأنوار الملونة . أنغام شجية تنطلق من صحن الدار . بعد أن جفت الأغنيات على الشفاة .. ؟ أخيرا تحقق حلم صالح .. ! :

ـ طبل..زمر من أجل ماذا ؟ قتل اثنين من قطاع الطرق و..؟ ماذا كانت ستفعل القرية لو حرقتم العزبة . « طربقتم » دورها على رءوس المتشردين ؟

نظرت خلفى . وجدت عكاشة . على شفتيه ابتسامة باهتة . تذكرت القرش الذى وجدته ابنتى فوق كوم السباخ .. كان بلا معالم .

ماذا يقصد عكاشة بسؤاله هذا ؟ هل .. ؟ لا .. لابد أنه لا يعنى .. ؟ لم لا .. ؟ منذ قليل قابلنى أحمد عبد العال :

- أقلقنى حديث مفترى .

- أى حديث ؟

- حديث كاذب . أخشى أن يكون قد ذاع بين أهل القرية .

- ما هو ؟

- كلام عكاشة .

اندفعت يدى نحو كتفه . ماتت الابتسامة على شفتيه :

- لماذا هربت الى مقهى المحطة . لم تأت معنا أمس ؟

خلص يدى من جلبابه الزفير :

- منذ بادىء الأمر . رفضت ما أردتم القيام به .

- تريد أن توصلنا برفضك الى حافة الفوضوية .. ؟

لوى عكاشة عنقه . اقتربت من الأستاذ محمد :

- انهم يقولون .

- مـن ؟

- بعض أهل القرية .

- دعهم يقولون . لا تصغ اليهم .

نظر نحو عكاشة :

ـ نشط محترفو الشكوك ٠

هتف عبد الحق :

ـ ربما كان عكاشة حسن النية ٠

رفع محمد افندى حاجبيه ٠٠ ساخرا :

ـ انما الأعمال بالنيات ٠

ـ بل انى أقصد كل كلمة نطق بها لسانى وسوف ٠٠

توقف الأستاذ محمد ٠ اطبقت يداى على عنق عكاشة :

ـ فى بادىء الأمر أخذت كلامك على محمل حسن٠٠أما الآن٠٠ اذا نطقت بكلمة أخرى فى هذا الموضوع ٠٠ سوف « أرقع » صداغك ٠٠ أسامع ؟

ارتفع الصياح ٠ التصفيق ٠ الغناء ٠ نظرات خلفى ٠ رأيت صالح راكبا حصانا أبيض ٠

٩

نهض احمد عبد العال واقفا :

ـ السكوت على ما يردده عكاشة ٠٠ أمر خطير ٠ ماذا يبغى من وراء التقليل من شأن ما قمنا به ليلة لقائنا بقطاع الطرق ٠٠ ؟

ابتسم محمد افندى :

ـ يردد ما يقوله مخلوف

اول امس قابلنى عكاشة :

ـ أخبرنى مخلوف أنه يكن لقريتنا كل حب

ـ متى ولد هذا الحب ؟ بعد أن ضربناه « شلوت » طردناه من القرية ؟ اننا نفضل عودة اللصوص ومهاجمتهم قريتنا على الا يرجع

مخلوف اليها · منذ أن تركها اختفت العفونة · تسللت الى الأنوف رائحة الزرع ·· عبير الخضرة ·

ـ السلام عليكم

ـ عليكم السلام

رشق الشيخ يوسف زاهر بنظرة جانبية :

ـ لماذا انطلقت الى دارك عندما خرجنا لملاقاة المتشردين ؟

ـ أعلنت من قبل عن رأيى · ليس العنف الوسيلة التى ··

جلس محمد أفندى على المصطبة :

ـ تريد أن تعود بنا الى دائرة الهوان المباح ؟

ـ كنت اتمنى أن تصلوا مع سامى الى ··

ـ بالأمنيات يحيا الانسان · ها · ها · ها

انداحت الضحكات

نظرت الى دكاكين مخلوف المغلقة بالشمع الأحمر :

ـ تريد أن تقيم لنا مصنعا ··

ـ لا · أنتم لا تعرفون الا المحراث · الفأس · تجيدون الزراعة

أسند الأستاذ محمد ظهره الى الحائط · دائما يقول :

ـ مخلوف · سامى يحاولان أن يدخلا فى روعنا أننا غير قادرين على استيعاب فن الصناعة · يريدان أن يسرقا محصولاتنا· ليصنعاها فى مصانعهما · ثم يبيعاها لنا بالشىء الفلانى · المصانع فى قريتنا سلم يوصلنا الى قلب الحضارة ·

أقبلت سيارة أمامى تتهادى ·· سفينة فى نهر · زحفت على شفتى ابتسامة · منذ أن نال اللصوص « العلقة » فزع سامى · أصبحت سيارته بندولية ·· بين القرية والعزبة · أين كان كل ذلك ؟ · أيام زمان ·· !

١٠

صعد عكاشة فوق أحد أكوام السباخ :

ـ قبل ذلك أعلنت أن سامى يريد أن نركع أمام المتشردين . ها هو اليوم يطلب منا الجلوس معهم لكى يساوونا . من منكم ينكر أن سيارة سامى تتردد بين القرية والعزبة مرات كل يوم ؟

ـ لا أحـد .

ـ هذا كلام معقول .

ـ لماذا ؟ .. كيف نقبل أن نحنى رءوسنا ؟

ماذا حدث ؟ زرعت كلمات عكاشة فى صدر بعض أهل القرية القلق و .. ؟ :

ـ حكاية ليلة السبت الماضى .. كانت تمثيلية . بدأت عندما خشى سامى على مصالحه التى هددها وجود مخلوف فى القرية . فقام العمدة بطرده .

زعق صالح :

ـ يريد مخلوف أن يأخذ كل شىء ولا يعطى شيئا .

ـ مجرد وعود كاذبة . سخافات . أفكار شيطانية .

ـ انه أفضل ممن يسعون الى اهدار كرامتنا .

انطلق صوت خشن :

ـ ما هذا الذى تقوله .. يا عكاشة ؟

ـ اننى أقول ما يدور بنفسى .

ـ أى نفس ؟

ـ التى تريد أن تكشف لأهل القرية الحقيقة . هرب قطـاع الطرق أمام الرجال .. هيه ؟ لماذا لم يطاردوهم .. هيه ؟ لماذا لم

يذهبــوا الى العزبة . أشعلوا النـــار فى دورها .. هيه ؟ لو كان اللصوص مكان الرجال .. هل كانوا سيتركون قريتنا الا اذا جعلوا دورها خرابا .. هيه .. !

ـ .....

لماذا سكت صاحب الصوت الخشن ؟ من أين لعكاشة هــذه البلاغة ؟ أكيد مخلوف لقنه ماذا يقول . كيف يرد علينا ؟ مخلوف « مولع » أكان يريد أن يتخذ قريتنا كوبرى لبقية القرى المجاورة . يضع يده على مزارع المركز وخيراته .. !

لكن لمــاذا قطب محمــد أفندى جبينه .. ؟ زعقت فى وجــه عكاشة :

ـ كنا نتمنى ألا تهرب.. تأتى معنا ليلة أن واجهنا اللصوص. نرى شطارتك .. هيه ..

تعلقت بشفتى الأستاذ محمد ابتسامة :

ـ اننى أعرف الشائعات المغرضــــة التى يرددها عكاشة .. لا تلق التفاتا اليه ..

هز عكاشة رأسه :

ـ اتفق سامى مع بعض الرجال على أن يفاجئوا اللصوص . يفروا أمامهم .. لكى يتدخل بعد ذلك .. يتظاهر أن الحل فى يده وحده .. تقبلون حلا وسطا .. يبدو الفضل فيه لسامى .. نحن نركع أمام الوافدين .

فى الصباح كنت على وشك أن أتشاجر مع عكاشة :

ـ صرت بوقا لمخلوف ؟ دعك من كل الأساليب التى تتبعها . كلها تنويع على لحن واحد يعزفه مخلوف .

ـ بدلا من أن تشكروا الرجل الذى أراد أن « يمدنكم » .. تسلخوه بألسنتكم ؟

ـ « يمــدنا » بجرار بدلا من المحراث ؟ طلمبة رى بدلا من

المساقية ؟ ظننا أنه سيجعل من فلاحى القرية أفندية ٠٠ ؟

استيقظت التعليقات :

ـ صحيح ٠٠ لماذا اهتم سامى بالموضوع هذه الأيام ٠٠ بالذات ؟

ـ يريد أن يصبح الكل فى الكل ٠

ـ أرضنا لا تقبل مساومة ٠

قبضت على ذراع الأستاذ محمد :

ـ تعليقات البعض شئ ٠ ما فى صدورنا شئ آخر ٠

رأسى يدور ٠ الوجوه ساكنة ٠ لولا معرفتى للحقيقة لما تملكنى الضيق ، كلمات عكاشة أثارت دخان الشكوك فى صدور بعض الرجال ٠٠ ؟ :

ـ مخلوف على استعداد أن يبيع لنا البنادق ٠ نسترد أرضنا دون أن نحنى رقابنا ٠

قطاع الطرق لا يعرفون الا كلمة واحدة ٠٠ الدم ٠٠ لا يخافون الا طريق البندقية ٠ كلام مخلوف عن استرداد الأرض ٠٠ الحرية وكرامة الإنسان و ٠٠ كواجهة دكانه الزجاجية ٠ مملوءة بأشياء براقة : ملونة ، فى الداخل زجاجات الخمر ٠ العفن و ٠٠

ارتفعت عبارات التذمر ٠ همسات الاستنكار :

ـ كرامتنا فوق كل اعتبار ٠

ـ أخذ اللصوص أرضنا بالقوة ٠ لن تردها الينا ٠٠ الا البندقية ٠

نظر صالح نحو الشيخ يوسف :

ـ زاد كلام هذا النجس الأمر غموضا و ٠٠

ـ لن تغير الكلمات من عزمنا ٠

شق محمد أفندى طريقه بين الأجساد · صعد فوق المصطبة :

ــ لولا أن تسلل عكاشة الى مقهى المحطة·هرب الكثير من الرجال لأدرك الجميع أن « العركة » كانت بيننا وبين اللصوص شرسة · ليست مسرحية · خرجنا من القرية نحمل قلوبنا على أيدينا · جرح جبريل · طبال القرية · هــو راقد الآن فى مستشــفى الوحــدة المجمعة · قتلنا رجلين من اللصوص و ··

قاطعه عكاشة :

ــ ماذا حققت « العركة » التى تزعمون أنكم حققتم بها عملا بطوليا ؟

ــ يبــدأ يوم جديد بومضة · يكفى أننــا أعــدنا الثقة الى أنفسنا و ··

ــ لماذا لم تستردوا كل الأرض التى وضع الوافدون أيديهم عليها ؟

ــ لم يكن معنا سوى بندقيتين ·· قليل من الطلقات ·

ــ زعمتم أن مخلوف ··

ــ اذا كان سامى جادا ·· وتوصل مع اللصــوص الى حــل مقبول ·· أهلا وسهلا ·

ــ لماذا لا تبحثون عن طريق آخر ؟

ــ لقد جربنا كل الطرق ·

لوحت بعض الأيدى :

ــ نريد أن نقف أمام الجميع مرفوعى الرأس ·

هتف عكاشة متسائلا :

ــ قبل ذلك رفضنا المساومة و ·· كيف نقبل اليوم دعــوة قطاع الطرق للحوار فى جلسات خاصة و ·· ؟

ــ اذا لم يتحقق لنــا كل ما نريد دون تفريط فى شبر من

أرضنا أو تمس كرامتنا فاننا نملك حق الرفض . نعرف الطـريق لكى ..

ـ وقوفكم بجانب سامى سوف ...

ـ نقف بجوار الشيطان لو وعدنا بانقاذ السفينة .

١١

ارتبطت العيون بنهاية الطريق . لماذا لم يظهر أحد .. ؟ خدعنا أهل العزبة ؟ ضحكوا على ذقوننا ؟ أخبرنا سامى أنه سيأتى معهم . يحضرون بقرتى . حمار أحمد عبد العال . راديو الأستاذ محمد و .. و .. و .. بعد العصر . لم تعد سوى ساعة وتغرب الشمس .. !

نهش القلق قلبى . استيقظ الهمس . نظرت نحو عبد الحق .. قلب كفيه .. تنهد .

هب أحمد عبد العال واقفا :

ـ ها هى سيارة سامى .

هلل البعض :

ـ انهم قادمون .

اندفعت نحو بقرتى. خارت. فرحة بعودتها ؟ مازالت تعرفنى؟ اشتريتها عجلة صغيرة . رحت أقدم اليها البرسيم . الدريس . الكسب .. لم تسع الدنيا فرحتى عندما كبرت .. وعشرت .. !

تكاثرت الهمسات . صارت أصواتا . أصبحت ضجيجا . راح سـامى يوزع ابتسـاماته على أهل القرية . لاعب فى سيرك أدى « نمرته » باتقان .. ينتظر .. ؟ نصفق له ؟ نهتف بحياته ..

سار نحو رجال العزبة . زعق زاهر :

ـ ألم أقل لكم ؟ لن تبقى الأشياء على ماهى عليه مادام سامى بيننا ...

أشعل ولاعته الذهبية :

ـ من كان يصدق أن أهل العزبة ... ؟

ابتسم زاهر :

ـ ماكان مستحيلا أصبح واقعا

عقب عودة رجال القرية من العزبة .. **وقف سامى فوق احدى المصاطب :**

ـ سوف تنعم القرية بالأمن والأمـان . لن ينشب حريق . لن نسمع صراخا .

تحسست يداى المنتشيتان وجه بقرتى . طافتا برقبتهـا . تسمرتا على قرنيها المقصوصتين . أين ذهبا ؟ لماذا قصهمـا رجال العزبة ؟ :

ـ مبروك .. يا بكر

من الذى قال ان الحيوان لا يتكلم ؟ لا داعى لأن ينطق لسانه .. تكفى عيناه . ترقص فيهما الفرحة . تطلب منى ألا أفرط فيها بعد ذلك .. ؟ من قال لك أننى أسلمتك لأهل العزبة طوعا .. ؟ ألا تعلمين أنهم أحاطوا بى فى الظلام . قطعوا رواستك الملفوفة حول يدى .. بالسكين ... !

جرت يدى على ضرعها . لماذا يبدو ساخنا هكذا ؟ ما هذا ؟ آثار دماء ؟ ألهب أهل العزبة الضرع .. ؟ استنزفوا لبنه ... ؟ :

ـ ألف مبروك ... يا بكر

اشعل سامى سيجارته الفاخرة . قدم علبته الفضية نحو رجال العزبة . التقط كل واحد منهم سيجارة .

طعنت نوارة الوجوه الحربائية بنظرات شوكية.**أمس قالت لى :**

ــ سامى يلعب دورا غامضا ٠

ــ كيف ؟

ــ يخشى أن ينال مصير مخلوف ٠٠ تهدد مصالحه فى القرية ٠

ركب أحمد عبد العال حماره ٠ هز رجليه ٠ انطلق نحو القرية ٠ قلب الأستاذ محمد الراديو فى يده ٠٠ نظر نحو رجال العزبة ٠ ابتسم أحدهم ٠ هرش قفاه :

ــ انه يعمل ٠٠ لكن « حجارته » فارغة ٠

ارتفع صوت مسرسع :

ــ احمد الله ٠٠ يا محمد أفندى ٠٠ لقد عاد الراديو من فم الحوت ٠

تقدم سامى نحو الشيخ يوسف ٠ وبتْ على كتفه :

ــ تستطيع أنت ومن ركب أهل العزبة أرضهم ٠٠ أن تضعوا أيديكم عليها ثانية ٠٠ الآن ٠

هتف زاهر بحياة سامى ٠ ردد بعض رجال القرية هتافاته ٠

وضع عكاشة يده فى خاصرته :

ــ عادت بقرة بكر ٠ راديو الأستاذ محمد و ٠٠ لكن هل عاد الحسينى بن نوارة ٠ وأخو فاطمة ٠ ابن الشيخ يوسف الأوسط ٠٠٠ ؟

من أين جاء عكاشة ؟ لم يطلب أحد منه الحضور ٠ كلماته تطفح جقدا ٠ يريد أن يشعل الشك والحقد والخوف فى صدور أهل القرية ٠٠ ؟ :

ــ لماذا لا تتكلم ٠٠ يا بكر ؟ اكتسبت كل شىء ٠٠ فقدت لسانك ؟

ـ أنا فقدت لسانى ‥ يا قليل الحياء ؟ هل ضايقك رجوع بقرتى ؟ أنسيت حكاية ابنتك ‥ ؟

سحق سامى سيجارته تحت حذائه اللامع . سار مع رجال العزبة نحو سيارته . حرك يده مودعا .

انطلقت السيارة نحو العزبة . لوح عبد الحق فى وجه عكاشة :

ـ ما هذا الذى نطق به لسانك ‥ ؟ كدت أن ...

ـ كم عزيز غاب عن قريتنا عقب شجارنا مع الوافدين ؟ كم بيتا التهمته النار ‥ ؟ كم ‥ ؟

قاطعه صاحب الصوت المسرسع :

ـ ضاع الكثير من أهل قريتنا أثناء شجارنا مع أهل العزبة ‥ لماذا لا نجرب الصلح معهم ؟ نريد أن نعيش ما تبقى لنا من الحياة مستقرين .

ـ ألم يمر أحد على المقابر ؟ لم تحك له عشرات قصص غدر ارتكبها اللصوص ؟ أكلت الديدان الذكريات ... الموجعة ‥ ؟

ـ عفا الله عما سلف .

ـ الشجار ‥ القتل فى دماء الوافدين .

كان وجه الحسينى بن نوارة يسبح فى بركة من الدماء فوق الكوبرى . أقلق مضاجعى أياما . كنت أتقلب على فراشى محموما . كدت أن أفقد عقلى .

زمجرت نوارة :

ـ كيف نعفو ‥ ! كيف ننسى ! ما زال على كل حائط فى قريتنا بصمات دم ونار .

هتف زاهر :

ـ تدخل سامى فى الوقت المناسب • حقق نتائج مرضية مشجعة •

زعق عكاشة :

ـ كان آباؤنا يكرهون الغرباء • لماذا وثقتم بسامى ؟

ـ لا تنس أن سامى قد قام •••

ـ لعبة خطيرة •• غير مأمونة العواقب • مغامرة •

تطاير سؤال خشن :

ـ ماذا تعنى •• بلعبة • ومغامرة •• يا عكاشة ؟

ـ جرت اللعبة بسرعة •• رصاصة صوبت الى الضلوع •

فى الصباح وقف زاهر وسط سور بشرى :

ـ لماذا لا تكونوا مرنين •• ؟ أهل العزبة سوف يقدمون الينا الكثير •

ماذا كان يعنى زاهر بالمرونة ؟ نتنازل لأهل العزبة على كل شىء • لا نحصل على شىء من حقوقنا •• !

خوف مبهم يرجف كيانى • علم عكاشة • شيئا جديدا •• يخفيه عنا ؟ لو ذهبت مع الأستاذ محمد وعبد الحق وزاهر الى العزبة يوم أن ••• !

العيون الضيقة تتلوى فيها الحيرة :

ـ ماذا سنقدم لقطاع الطرق مقابل •• عودة بقرة بكر المقصوصة القرنين الملتهبة الضرع وأرض الشيخ يوسف و •• ؟

ـ هل سيأتى اللصوص الى قريتنا •• حقا ؟

كلمات عكاشة فتحت باب التساؤل الحائر ؟

هتف محمد أفندى :

ـ كلام عكاشة مجرد نقيق ضفدعة فى ترعة جف ماؤها ٠

نظرت نحو نوارة ٠ لماذا تقف صامتة ؟ لماذا لم تقبل نحوى ؟ تقول لى : مبروك ٠٠ ! أثار سؤال عكاشة ذكرى مقتل ابنها ٠٠ ؟

عقب عودة رجال قريتنا من العزبة بصحبة سامى ٠٠ وقفت نوارة ٠٠ شجرة كازورين :

ـ اننى لا أعترض على أن تعود الأرض الى أصحابها ٠٠ ترجع بقرة بكر اليه ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ لكننى لا أوافق على مجىء اللصوص الى القرية ٠

مخلب حانق يطل من عينى زاهر ٠ اندفع نحو عكاشة :

ـ صرت لسان مخلوف ؟

امسكت بذراع زاهر :

ـ دع عكاشة يعبر عن رأيه ٠

ـ أهذا رأى عكاشة ٠٠ أم فحيح مخلوف ؟

أول أمس عندما كنت عائدا من المسجد أحسست بخطوات تلاحقنى ٠ التفت ورائى ٠ وجدت عكاشة :

ـ سامى يسعى لخداع أهل القرية ٠ لو قبلت شروط قطاع الطرق خدعكم سامى ٠٠ مرغ أنوف رجال القرية فى التراب ٠ لو كان مخلوف بيننا الآن ٠٠؟ لحفظ ماء وجوهنا ٠ قدم الينا البنادق و ٠٠

ـ ماذا فعل سيدك مخلوف طوال السنوات التى قضاها فى القرية ٠٠ ؟ اندفعنا وراءه ٠٠ توهمنا ٠٠ ظننا أن فى يده الخلاص ٠٠ الاخلاص ٠٠ تشبثنا بأذياله ٠ رفضنا أن نرى نذالته وخيانته ماذا كانت النتيجة ٠٠٠ ؟

ـ علم مخلوف أفضل من ٠٠

ـ لا علم بلا ايمان ٠

تضخم الصخب ٠ لماذا اتسعت دوامة الاستنكار ضد نزاهة ٠ سامى ؟ عاد عكاشة وألقى بحجر فى بحر الشكوك ٠٠ !

١٢

أطلقت زوجتى زغرودة ٠ ذابت فى خوار البقرة ٠ تقدمت نحو صحن الدار ٠ دفعت باب الزريبة برأسها ٠ ما زالت تعرف الطريق اليها ؟ ألقت زوجتى أمامها حزمة برسيم ٠ غدا سأحضر الطبيب البيطرى ليفحص ضرعها الملتهب ٠ الأولاد يدورون حولها ٠ لم يصـــدقوا عيونهم ؟ ٠ يتأكدوا من عودتها ٠٠ ؟ عندما أخبرنى محمد أفندى أن وضع أيدينا فى أيدى أهل العزبة سوف يعيــد الى بقرتى و ٠٠ :

ـ ما رأيك ٠٠٠ يا بكر ؟

ـ الرأى ٠٠ رأيكم ٠

ظل ذلك الحديث المتفائل يدغدغ قلبى ٠٠ لكن كلام عكاشة الليلة ٠ تساؤلات أهل القرية الحائرة ٠ نظرات نوارة الجريحة ٠٠ جعلت الفأر يلعب فى عبى ٠ شىء من الخوف يوخز صدرى٠٠ تماما كما أحسست به ليلة عودتى من الغيط أجر بقرتى و ٠٠٠ !

اشعلت اللمبة نمرة عشرة ٠٠ ملأ وجه نوارة عينى :

ـ قطاع الطرق وسامى مصالحهم مشتركة ٠٠ اننى لا أثق فى نوايا سامى٠

ـ شكوكك أبلغ اثبات ٠

وضعت زوجتى الطبلية فى الصالة · تصاعد بخار الطعام · فركت يديها :

ـ الجـو بارد ·

ـ امتلأت الدار دفئا بعودة بقرتى ·

تحلق الأولاد حول الطبلية :

ـ غدا عندما يعرف الذين صفقوا لذهاب بعض رجال قريتنا العزبة ·· الحقيقة·· تفاصيل اللعبة·· سوف يلعنون سامى و ··

ـ يا عكاشة أنت تريد جنازة وتشبع فيها لطما · لماذا تلقى ظلالا وشكوكا حول ما حققه رجال القرية مع أهل العزبة ؟

ـ فقدنا احترام أهل القرى المجاورة ·

ـ يكفى أن ···

ـ لا ·· حتى لم نكسب احترام أنفسنا ·

قدم الى ابنى الأكبر ملعقة :

ـ لماذا لا تأكل ·· يا أبى ؟

هتف ابنى الأوسط :

ـ لماذا تبدو حزينا ؟

تساءلت زوجتى :

ـ ألم تعد الينا بقرتنا ··· ؟ لماذا أنت شارد ؟

عاد وجه نوارة يطل من اللمبة نمرة عشرة :

ـ ماذا ستفعل القرية عندما تسقط الأقنعة عن وجه سامى · وقطاع الطرق ؟

امتلأت الصالة برائحة عفنة · من أين أقبلت هذه العفونة ؟

امتد بصرى عبر الباب المفتوح · وقعت عيناى على كلب ينبش كوم السماد القائم فى الجرن ·· قفزت من مكانى ·· دفعت الباب بقدمى · **حملت زوجتى اللمبة الصاروخ فى يدها :**

ــ ألم تر أن مشاعرك حيال عودة بقرتى أكثر برودة من هذا المساء ·· يا عكاشة ؟

ــ ·····

بعــد أن أعلن عكاشة أنه رجل « ســبور » · ارتدت ابنته بنطلونا ·· تكاثر شباب القرية حولها ·· قطعة عسلية حط عليها الذباب ·· **انتفخت بطنها كالبالون :**

ــ كيف أدارى الفضيحة ؟

ــ لن تفلــح المــداراة ·· ولعلك الآن قد أدركت أن أفكار مخلوف جلبت المصائب ··· ؟

نهض ابنى الأصغر ·· ادركه صوت أمه :

ــ **اغسل يديك ·**

تذكرت أننى لم أتوضــأ · لم أصــل المغــرب · انطلقت الى المسجد ·· **اقتربت من دار عكاشة :**

ــ أخبرنا عبد الحق أن مجىء أهل العزبة الى قريتنا · تعاملهم معنا سوف يملأ جيوبنا بالنقود ·

ــ ربمــا ···

ــ أحلام برجوازية صغيرة ·

سبور · ؟ برجوازية ؟ ما معنى هاتان الكلمتان ؟ لم لا أسأل عنهما · ؟ لو منحنى فرصة السؤال ؟ :

ــ قال عودة اللصوص الى القرية بجانب وجود سامى فيها·· سوف يجلب لنا الرخاء ·· قال ؟ لو وجدونا قرشا لنشلونا ·

لمـاذا لا تكون كلمـــة برجوازية ·· من مصطلحات مخلوف النجس ؟

ليل القرية جثة مزقتها سيارة · لمـاذا كان صـوت نوارة جريحا ؟ ينزف حزنه العميق بمرارة ··· ؟ :

ــ أخشى أن يكون قطـاع الطرق خدعـوا رجال قريتنا ·· اتفقوا معهم قبل أن يعرفوا التفاصيل ·· ؟

توقفت لحظة أمام صنبور المياه · الماء ثلجى ·· كلمات نوارة ·· أشعلت فى عروقى نار القلق والخوف ·· أيقظت فى صدرى ماردا يعلن عن ·· غضبه ·· !

غادرت المسجد · القمر شاحب · ارسل الحزن مع خيوطه ؟ الكآبة تغطى كل شىء ؟ ماتت قريتنا ·· !

١٣

فتحت القرية عيونها · أبوابها · على صوت استغاثة :

ــ أدركونى يا بلد ·

ــ ماذا حدث يا جبريل ؟

ــ مصيبة ··

ــ عاد الوافدون · اشعلوا النار فى نباتات قمحك ؟

ــ ليت هذا حدث ·

ــ ماذا هناك ·· اذن ؟

ــ عندما كنت ذاهبا الى الغيط ·· مررت بجوار المقـــابر وجـــدت ··

لماذا أمسك جبريل عن الكلام ؟ لماذا جلس بجوار الحائط ؟ · صنع من ركبتيه زاويتين· تدلى ذراعاه·دفن وجهه بين ركبتيه ···؟

ظلال الدهشة تفترش كل الوجوه . تقابلت العيون المرتعشة. تحجرت فكا صالح :

ـ أخبرنا يا جبريل .. ماذا وجدت فى المقابر ؟

ـ وجدت بعض القبـور مهدمة .. جثث الموتى ممزقة .. مبعثرة فى شوارع المقابر .

سقطت من الأفواه شهقات . هتف زاهر :

ـ لا أصدق أن هذا حدث .. فعلا .

نهض جبريل واقفا :

ـ ولكنه الواقع ..

ـ الحقيقة أن .....

قاطعت نوارة زاهر :

ـ أين الحقيقة فى هذه القرية ؟

قادتنى قدماى نحـوها . جذبتنى اليهـا المرارة المتدفقة من صوتها الأبيض ؟ الحزن الراقد فى عينيها العسليتين ؟ :

ـ لماذا لا نذهب الى المقابر ؟

ـ كلام معقول .

امتدت الخطوات . ترى من الذى قام بنبش المقابر ؟ استخرج جثث موتانا ؟ منذ أن جاء اللصوص الى قريتنا .. كفن كل شيء حـزن ثقيل .. حتى أشـجار الزيتون التى أحرقوها . هجرتها الطيور . رغم أنها أورقت . عادت اليها الحياة .. لم تعد اليها الطيـور ... !

اقترب أهل القرية من المقابر . هتف جبريل :

ـ ستجدون الكثير من الجثث ...

لماذا لا يكون الوافدون ··· ؟ انتهت اللحظات القصار التى ظن فيها أهل القرية أنهم تمتعوا بالسكينة ؟

أعلنت نوارة اعتراضها على مجئ قطاع الطرق الى قريتنا · الكراهية تملأ قلوبهم · لا يحترمون وعدا ·

هل نسوا يوم السبت ·· ؟ يوم أن أوقفناهم عند حدهم ·· وعرفنا معنى الثأر ··· والحياة ··· !

جرشت أسنانى · لم يبق الا الموتى ·· ؟ لو وقع اللصوص فى أيدينا ؟ ماذا سنفعل··؟ ينتهكون حرمات موتانا··ونسكت··؟ يصفعوننا على أقفيتنا وتظل أيدينا مقيدة ·· ؟ يوم السبت قابلناهم ·· اكتشفنا وجودنا الحقيقى ·· ما زالت البندقية التى ظفرت بها منهم فى دارى ·· !

طافت عيناى بأشجار الكازورينا التى تحيط بالقرية · لماذا تبدو منكسة الرءوس ·· اليوم ؟ منذ سكت نقر الدفوف · قرع الطبول فى القرية · ملأت الثعالب شوارعها ؟

تزاحمت العيون المتلهفة على فوهات المقابر · زحفت الأقدام نحوها ·· هتف زاهر :

ـ ليس هذا من صنع انسان ·

ـ من الذى قام به ·· اذن ؟

انداحت التعليقات :

ـ لابد أن العفاريت قامت بهذا العمل ·

ـ بل بقرة بكر هى التى قامت به ·

ـ لم لا يكون حمار أحمد عبد العار ·· ؟

انشقت شفتاى عن ابتسامة ·· وسط المقابر · فى مثل هذا الموقف ·· لدينا قدرة على المزاح ؟

اشار زاهر بسبابته نحو فوهة احدى المقابر :

ـ هذه آثار مخالب ثعالب أو ذئاب .

الصمت يزحم المقـــابر . لماذا عشش الصـــوت المبحوح فى الحناجر ؟ أدرك أهل القرية صدق قول زاهر ؟ لماذا لم تعد الأقدام القلقة تستقر فى مكانها ؟ تعكس اضطراب الأعماق .. !

طفا سؤال مرتعش :

ـ ما العمل ؟

كم مرة ألقى رجل من القرية هـــذا السؤال ؟ ألف مرة ؟ مليون .. ؟ لن يسأم أهل القرية تكراره .. !

ارتفع صوت محمد افندى :

ـ يخيل الى أن أكثر من ذئب قام بهذا العمل .

ـ لمـــاذا هاجمت الذئاب مقابر قريتنـــا .. عنـــدما جاءها اللصوص و « برطعوا » فيها ... ؟

اهتزت الرءوس . تحركها أشياء كثيرة ... ! :

ـ ليس أمامنا الا مهاجمة الذئاب عندما تعود الى المقابر ليلا .

تسلسل صوت مسرسع :

ـ ولكن ...

ـ الكلام الواضح لا يحتاج الى ايضاح ..

١٤

تطلعت الى القرية المنحوتة فى الظلام . عيون الرجال تتوهج بنار الغيظ . ترى كم ذئبا قام بنبش المقابر أمس ؟ خمسة ذئاب؟ تسعة .. ؟ ستأتى الليلة ... !

تحسست بندقيتى · لم أحملها منذ أن غنمتها من اللصوص· بعد العصر كانت زوجتى تقلى بطاطس · بيضا · طلبت منها زجاجة الزيت · وضعت قطرات على الزناد ·

التقطت أذناى صوت نوارة · رفضت المساومة على دم ابنها الحسينى ··· ؟

عادت كلمات عكاشة ترن فى أذنى :

ــ أصبح سامى الآمر الناهى فى القرية ؟ طلب من العمدة تعيين زاهر نائبا للعمدة · عبد الحق شيخا للخفراء · طبال القرية عاملا للتليفون ·· انشاء نادى للعاملين فى دكاكين سامى ·

ــ ·····

ــ زعم أهل القرية أنهم تخلصوا من شر مخلوف ·· وقعوا فى بلاء سامى وقطاع الطرق ·

حملت الريح عواء ذئاب · لابد أنها قادمة · منذ عامين قطعنا دابر ذئب أجرب · كان يهاجم عريشة أحمد عبد العال · ضربه صالح على رأسه بالفأس · بترته ·

وضعت مقذوفا فى حوصلة البندقية · لم يمر أسبوع على مجىء اللصوص الى قريتنا · حتى حمل كل منهم حقيبة بها ملابس جاهزة ولعب أطفال و ·· أقام البعض دكاكين ملأها بالمعلبات وأدوات الزينة ·· **الشيخ يوسف يقول :**

ــ أهل العزبة يعبدون الهين ·· الله ·· والمال ·

ــ ألا تكفى دكاكين ووكالات سامى التى تملأ القرية ·· !

الضوء ينساب من نافذة عبد الحق · لماذا لم يأت معنا الليلة ؟ عقب عودته من العزبة · وضع يده على **كتف الشيخ يوسف :**

ـ سوف ترى بعد قليل آثار زيارتنا للعزبة ٠٠ سوف تغرق القرية فى الخيرات ٠

ـ أخشى ألا نجد « الدقة » بعد ذلك ٠

اشتد هبوب الريح ٠ أطفأت المشاعل ٠ نظرت نحو النهر ٠ الى متى تصفع أمواجه الثائرة وجه الشاطىء المستكين ؟ أحقيقة أن ترعة جديدة ستمتد منه الى أرض العزبة ؟ كيف يروى ماء نهرنا أرض قطاع الطرق ٠٠ ! أرضنا اللاهثة فى حاجة لكل قطرة ماء ٠ عندما قرر الأستاذ محمد الذهاب الى العزبة ومعه زاهر وعبد الحق٠ طلبوا من نوارة مصاحبتهم ٠ رفضت :

ـ اللصوص ٠٠ هم قطاع الطرق ٠

قال الأستاذ عبد الحق :

ـ أنا أضمن ٠٠ أهل العزبة ٠

ـ من يحاول أن يقبض على الزئبق فهو أحمق ٠

ارتفع عواء الذئاب ٠ اقتربت من المقابر ؟

توقف الرجال ٠ أشار صالح بيده :

ـ لا تطلقوا النار الا بعد أن تدخل الذئاب شوارع المقابر ٠ سدوا عليها كل المنافذ ٠

ـ اذا أخطأ الرصاص ٠٠ لن تخطىء العصى والفئوس ٠

ميزت عيناى شبح ذئب يتقدم قطيعا من الذئاب ٠ لماذا توقف ؟ التقطت أذناه همس أحدنا ؟ شم رائحة البارود ؟ حدثه قلبه أن ٠٠ ؟ سيقرر العودة ٠٠ ؟

حينما كنت عائدا من الحقل أجر بقرتى ٠ كانت تسير ببطء ٠ كأننى أسحبها الى الجزار ٠ كانت تعرف أن اللصوص يتربصون فى الظلام عند مدخل الشارع المؤدى الى دارى ٠٠ !

توقف قطيع الذئاب · تتهيأ للهجـوم على المقابر ؟ تنتظـر اشارة التقدم من الذئب الضخم · ؟

لو اشتد هبوب الريح · حملت السحب · دوى الرعب ··!

يوم أن خرجنا لملاقاة قطاع الطرق · كانت السحب الداكنة تتسابق على صدر السماء · برقت · همست نوارة :

ــ نحن نختزن البرق بين الضلوع ·

تقدم الذئب الضخم · تبعته بقية الذئاب ·

اندفع الرجال نحو منافذ المقابر · شددت قبضتى على بندقيتى · أبثها غضبى · حقدى ·· ؟

ملت على أذن نوارة :

ــ يبدو أن السماء ستمطر ·

ــ لعل المطر ينهمر ·

انهالت رخات الرصاص ·· هطل المطر ·

رحيل السواقى بحثا عن النهر

تقافزت العيون بين السحابة القاتمة الزاحفة على صدر السماء .. الطريق الترابى الممتد الى القرية :

ـ لم يأت امام المسجد ٠ السحابة سوف تغطى القرية بعد قليل ٠

لماذا نظر دهشان نحوى ؟ يحملنى مسئولية تأخير خطيب الجامع ؟ ألم أخبر الحاضرين أننى ذهبت الى داره ؟ قالت لى ابنته انه سيتوضأ ٠ يلحق بكم عند الساقية ؟

تنهد متولى حسانين :

ـ كل تأخيرة وفيها خيرة ٠

غطت السحابة وجه الشمس ٠ امتلأ المكان بسكون غريب ٠ تسربت الحيرة الى الصدور ؟ ماذا نفعل لو عبرت السحابة سماء القرية ؟ ٠ قبل أن يأتى واعظ المسجد ؟

شرخ الصمت صوت يمامة تترنم بصوتها الحزين • منذ متى لم تروِ الأرض ؟ شهر ؟ خمسة أسابيع ؟

رميت ببصرى نحــو أرضى المزروعــة بالقمح • الشــقوق تملأها • اذا لم تسق سوف تموت النباتات • من أين أطعم الأفواه المفتوحة ؟ لا يمتلىء •• لا تعرف الشبع •• !

عاد ببصرى الى الساقية • كان كل واحد يسحب جاموسته • يأخذ بقرة جاره • صديقه « زمال » تروى الأرض • لم تعرف يوما معنى العطش • منذ أن كسر خولى العمدة سنتين فى الترس الخشبى الكبير • قصف ابن شــيخ الخفراء الشعبة • ثقب قبــانى القرية الطنبوشة • لم يفكر أحد فى اصلاحها • صارت خربة • الآن ندفع الثمن أحزانا مريرة •• ؟

راحت أصابع دهشــان ترســم خطوطا بين قدميه • يدفن حيرته ؟ ينبش عن حل ؟ سيوفق •• !

تلفت حولى • امتلأت القنوات بالتراب • الحجارة والحشائش؟ عادت عيناى الى الساقية • نامتا على ترسها المتآكل • منذ آلاف السنين تعمل فى صدر الحقل •• رئة بين ضلوع الانسان •• لم يشعر أحد فى القرية بطعنة جوع •• صارت الساقية •• !

عندما صحبت ابنى الصغير الى طبيب الوحدة المجمعة :

ــ يسعل طوال الليل •

ــ رئته مصابة •

كفت أصابع دهشان عن النبش فى التراب :

ــ تركت الساقية دون اصلاح حتى ••

لوح متولى فى وجهه :

ــ تتحدث عن الساقية وكأنك تمتلكها وحدك ؟ ألسنا شركاء فيها ؟

خطوط الحزن والمرارة تزحف على وجـوه أهـل القـرية . يتحسرون على الأيام الماضية ؟ أدركوا خطورة موقفهم الآن ؟ لو أحضروا نجـار السـواقى . ليصنع ضرسين . دق مسمارين فى الشعبة . جاء الحداد . أصلح الطنبوشة ؟ ماذا كان سيدفع كل صاحب فدان ترويه الساقية ؟ ثلاثة قروش ؟ بدلا من تعميرها .. أخذ كل واحد يمر عليها يخلع مسمارا . يلتقط ضرسا خشبيا . صار الترس .. فم عجوز .. أصبحت الطنبوشة غربالا .. !

ضرب متولى كفا بكف :

ـ أعواد القمح . البرسيم . الفول مهددة بالجفاف . الأرض سيصيبها البوار .

البوار فى الأرض أم فى تفكيرنا ؟ لو أحسن أهـل القـرية استعمال الساقية . صيانتها ؟ لما حدث لها ما حدث .. ! لكن كل واحد يأخذ بحقه حلفاء . بئر يستنزفها .

متى تتدفق المياه من صدر الساقية ؟ تسترجع أنينها ؟ نردد على أنغامها المواويل .. !

احتضنت ذراعاى ركبتى :

ـ ما رأيكم لو أحضرنا طلمبة رى الهوارى ؟

تحسس متولى صدره :

ـ الهوارى يقبض مقدما .. الساعة بجنيه كورقة البوسطة .

ـ اذا كانت النقود مهمة .. حياة الزرع أهم .

هتف الحاج رمضان :

ـ أخبـرنى الهوارى ان الدنك معطل . يحتاج الى قطعـة غيـار .

ـ هذه حجة يتخذها الهوارى ٠ لكى يرفع سعر الساعة الى جنيه ونصف ٠

مد دهشان يده فى جيب الصديرى :

ـ من أين نشترى له قطعة الغيار التى ٠٠ ؟

ـ قطع الغيار غير متوفرة ٠

ـ وما العمل ؟

حينما كانت الساقية تتعطل ساعة نسرع الى نجار القرية ٠ يدق مسمارا فى « الهودية » ٠ فى الترس العلوى ٠ تعاود عملها ٠ أما هذه المرة ٠ خرسها خولى العمدة ٠ ابن شيخ الخفراء ٠ قبانى القرية ٠ تحتاج الى « عمرة » كبيرة ٠٠ !

رفعت رأسى ٠ لماذا احتضنت العيون وجهى ؟ ينتظرون رأيى ؟ أين تفكيرك السليم ؟ شل عقلك ؟

فى الصـباح قذف ابنى الأوسط بفارسه الطينى ٠ كسرت رأسـه ٠

تطلعت الأبصار الى السماء ٠ اقتربت السحابة ٠ لو أمطرت؟ لم لا ؟ ليس هذا على الله بشىء عسير ٠ أمنية صغيرة ٠ لماذا لاتتحقق؟ لو تحققت لأمكننا أن ننقـذ الزرع ٠ نفكر على مهل فى اصـلاح الساقية ٠ رى الأرض العطشى ٠

مر رجل يركب حمارا يضع على ظهره محراثا ٠ كان يشـق الأرض ٠ زوجتى تسقط حبات الذرة من قبضتها فى رحم الخط ٠ ما هذا الذى ارتعش فى صدرى ؟ احساس بالخوف من المجهول ؟ ماذا لو ٠٠ ؟ تموت الحبوب قبل أن تمتد جذورها فى الأرض ؟ لا تخرج منها أوراق خضراء ٠٠ !

أقبل خطيب المسجد :

ـ لماذا تأخرت يا مولانا ؟

ـ ماذا كنا نفعل لو انك لم تأت الآن ؟

تعلقت بشفتيه ابتسامة :

ـ الحمد لله انى جئت • هيا لنصلى • سقوط المطر يعنى الخير • عسى الله أن ينزل الغيث • هذه المرة • يجب أن نصلح الساقية • طلب الله من السيدة مريم أن تهز جذع النخلة •

وقفنا صفوفا خلف فقيه القرية •

مر نصف السحابة • لو ألقت بنصف مائها ؟ نسقى الأرض المتشوقة للماء •• أنثى فى شوق الى الذكر •

كور خطيب المسجد مسبحته فى قبضته :

ـ جفاف • برد فى وقت واحد ؟ أليس هذا دليلا على غضب المولى علينا ؟

أشار متولى بيده :

ـ لابد من عمل جاد لانقاذ النباتات من الذبول و ••

هززت رأسى :

ـ لا تكفى النوايا الطيبة •

دس واعظ المسجد مسبحته فى جيبه :

ـ نطلب من الله ماء يحيى به الأرض ••

ارتبطت العيـــون بالسحابة • لماذا تسرع فى سيرها فوق الحقول ؟ قررت أن ••؟ كانت منذ قليل تزحف ببطء • على جدران نفسى تحبو نباتات شوكية •• !

حكاية رى الأرض زرعت الخوف · القلق · الحيرة فى الصدور · تطارد فكرى بالنهار والليل · سنترك نباتات القمح والقطن و ·· تذوى · أطفال يموتون ·· !

لم يبق سوى ذيل السحابة · لو أمطرت ؟ يكفى أن تبلل الأرض · قطرات ماء على لسان ظامىء · تمتلىء نصف السنابل ·· واذا لم ؟ يحل الجوع ·· البوار ؟

أطل وجه الشمس · لماذا يبدو ذهبيا لامعا ؟ يسخر من أحلامنا ·· الصغيرة ؟

سقطت رءوس أهل القرية على صدورهم ·· انتقل بصرى الى السنابل المائلة على أعوادها · منذ دقائق كانت الأمانى تملأ جوانحنا ·

زفر دهشان :

ــ سنترك الأرض عطشى تتحرق الى الماء ؟

كور متولى يده :

ــ كيف أدبر أمر النبت الصغير الذى بدأ يظهر · يكسو الأرض بالخضرة الحلوة ؟

متولى أول من زرع أرزا · ظهر فى الأرض الشراقى الواسعة · أتراه يذبل · يموت ؟ كيف يترك أهل القرية زرعهم يخيب ؟ لم يخب لهم زرع من قبل · لابد أن يروى بأية وسيلة مهما كلفنا الأمر ·· !

عض متولى شفته :

ــ لماذا لا تبحث عن حل آخر ؟

لوح دهشان بيده فى يأس :

ـ لقد ناقشنا كل الطرق ٠

ـ حلت علينا لعنة السماء ؟

واعظ القرية دائما يقول :

ـ لو تطهرت النفوس من أنانيتها ٠ خلت القــرية من أمثال نبوية ٠٠ لبارك الله فى كل شىء ٠٠

نبوية ؟ جسدها مرتبة لكثير من رجال القرية ٠ عندما تفتح الشباك ٠ تلقى بنهديها البارزتين فوق قاعدة النافذة ٠ فتحة ثوبها تكشف عن مفرقهما الحليبى ٠ نظراتها تجرد الانسان من ثيابه ٠

دق عبد العليم مدار الساقية بقبضته :

ـ ما رأيكم لو استأجرنا طائرة تسقط مطرا ٠٠ صناعيا ؟

ـ كيف ؟

ـ ترش الطائرة فوق السحب التى تمر فى سماء قريتنــا نترات فضة أو يودور بوتاسيوم ٠

اتسعت عينا متولى :

ـ ماذا تقول ؟ ن ٠٠ ن نتر ٠٠ الفضة ٠٠ بو ٠٠ بو ٠٠ البوتاسيوم يسقط المطر ٠ نروى أرضنا ؟ ٠

ـ نعــم ٠

ـ هل ستكلفنا هذه العملية كثيرا ؟

ـ ليس المهم ٠٠كم تتكلف المسألة ٠ المهم سقوط المطر و ٠٠

ـ نريد أن نعرف أولا ٠ لكى نعمل حسابنا ٠

ـ خمسة آلاف جنيه هذا بخلاف ٠٠

ـ يا خبر ٠٠ خمسة آلاف جنيه ؟

ـ لو بعنا كل ما نملك لن نجمع خمسة آلاف قرش ٠

نســتأجر طائرة ٠٠ ؟ ننتظـر قدوم السحب و ٠٠ ؟ ندفع خمسة آلاف جنيه ؟ ماذا نفعل عندما يقبل الصيف ؟ كانت ساقيتنا أبرك من عشر طائرات ٠ كانت تروى أرض القرية فى أى وقت ٠ دون أن ندفع جنيها ٠٠ !

غمغم دهشان :

ــ من الأفضل أن نصلح الساقية ٠٠ كما قال مولانا ٠

زعق متولى :

ــ المهم أن نروى الأرض على وجه السرعة سواء أحضرنا قطعة غيار « لدنك » الهوارى أو ٠٠ دفعنا جنيها ونصف فى الساعة ٠

لو أمطرت السحابة ٠ ؟ قبل أن نأتى الى هنا ٠ قابلتنـــا نبوية ٠ كانت تحمل بلاصا فارغا ٠ لماذا لم تبتعد عن طريقنا ؟ دخلت أحد الأزقة ؟ أولتنا ظهرها ٠٠٠ ! :

ــ يجب أن نثق فيما قاله الباشمهندس عبد العليم ٠ انه يعرف ما لا نعرفه من العلم الحديث ٠

ابتسم عبد العليم ٠ ما زالت ذيول ضحكات نبوية ترن فى أذنى ٠ حين أسير أمام دارها أجدها متكئة على حافة الشباك أو جالسة على عتبة الباب٠صدرها العارى٠جلبابها محصور عن ساقيها ٠٠ أخذت نقود ٠ امتصت دماء كثير من رجال القرية ٠

قلب دهشان كفيه :

ــ سنترك تعبنا ٠ عرقنـــا شــهورا ٠٠ يجف على الأرض العطشى ٠٠ ؟

تطلعت العيون الى السماء ٠ تعلقت بسحابة سوداء تزحف ببطء نحو القرية ٠٠ تمتمت الشفاة المتلهفة بدعاء ٠٠ خافت ٠

الهوان

اختنقت الدار بأهل القرية • امتدت الأيدى الخشنة نحوه مهنئة :

ــ مبــروك •

ــ • • • •

ــ ألف مبروك •

انشقت شفتاه ••

ــ فرحنا كثيرا •

زحفت ظلال ابتسامة على شفتيه •

ــ تهانينا القلبية • الحمد الله أنك وجدت الكردان الذهبى •

ــ • • • •

ــ عندما سمعنا نبأ ضياع الكردان الذهبى•استعوضنا الله•
ها هو قد عاد •• بعد سنوات •

. . ارتفع هديل الحمام العائد الى البنانى · ترنحت على شفتيه ابتسامة ذبيحة · اقتلعها من تحت الضرس ؟ من دوامة الحيرة ·· ! :

ـ يوم المنى ·· يوم عودة كردان زوجتك الضائع ·

ـ زادت الابتسامة المسلوخة اتساعا · لا تملك سوى الابتسام؟ لو نطق لسانك بكلمة ·· ؟ سوف تفضحك نبرات صـوتك · أخشى أن تفشل فى اخفاء اضطرابك ·· الى متى ستظل صامتا ؟ تكتفى بالابتسام ·· ؟ لماذا لا ترد ·· ؟ تخشى الكلام ·· ؟ كيف تبرر صمتك ·· الغامض · ؟ ألا يثير فى الصدور نار الفضول ؟ · محاولة معرفة مفتاح اثارته ·· ؟ لو تحدثت لوقعت فى الخطأ الذى تخافه ·· كيف تسكت ضربات الدم الهائجة فى عروقك ·· ؟ الى متى ستظل تسمع تهانى أهل القرية · الدمع يملؤ صدرك ؟ :

ـ لو كنا مكانك الآن ·· لذبحنا عجلا وأقمنا ليلة كبيرة ·

· صارت الابتسامة ·· عملة ممسوخة ·· أدرك أهل القرية أنك ترسـم هـذه الابتسامة فى لحظات الضيق ؟ لو تدفق نهر الدمع من عينيك ·· !

الريح تدفع أمامها سحبا قاتمة كالدخان المتصاعد من بنـاء يحترق · من أين أشترى عجلا ·· ؟ أقيم سرادقا و ·· ؟ موت وخراب ديار ·· ؟ هناك أمور كثيرة غير طبعية يتقبلها الانسان على أنها حقائق ·· ؟ أخشى أن تطل الحقيقة برأسها من الوحل ·· تنتقل من فوق المصـاطب ··· تتسلل الى السـطوح ·· تتخطى شواشى الأشجار والنخيل · تتلقفها كل أذن صاغية ·· ؟ أنا على يقين أنها لن تترك لسانا الا وتمتزج بلعابه ··· ! :

ـ لا ندرى كيف نعبر لك عن فرحتنا ·· بعد خمسة عشر عاما ·· يعود اليك كردان زوجتك المفقود · ؟

لماذا تتفحص العيون وجهى ؟ تدفق طوفان الدمع من عينى ؟ حمل معه وحل الحقيقة ‥ ؟ أخشى أن يدرك أهل القرية ان الابتسامة التى ألصقتها بشفتى مفتعلة ‥ مزيفة ‥ ؟ لو قرأوا فى عينى شيئا مما أخفيه ‥؟ صارتا مرآة صافية لأعماقى ‥؟ حفر الطوفان على وجهى أخاديد الحقيقة ؟ لو أعلنت عن نفسها ‥ ؟ بطن جيفة مبقور خرجت أمعاؤها ‥ الى متى ستظل مختفية ؟ لا يعرف الذباب طريقها ؟ لو لم أعلنها ‥ سوف يبوح بها ابنى ؟ يفلت بها لسان زوجتى ‥ ؟ يعلنها اللصوص ‥ ؟ ماذا قلت ‥ ؟ اللصوص ؟ أنا نطقت بهذه الكلمة ؟ أسمعها أحد من الحاضرين ‥‥ ! :

ـ هل وافقت على حكاية شراء عجل وذبحه واقامة ليلة لأهل الله ؟

لو حاولت التملص من أهل القرية ‥ سوف يجمعون على ويصفوننى بالبخل والشح ‥ لو وافقت على اقامة وليمة و ‥ ستظل الحقيقة مختفية‥لن يصل اليها الذباب٠لكن الى متى ‥؟ الحال ستر الهى ‥ !

ـ يوم أن أعلنت عن ضياع كردان زوجتك الذهبى ٠ حزنا جميعا من أعماق قلوبنا ٠

ـ ‥‥

ـ لماذا لا تتكلم ؟

أأكتفى بالابتسام ؟ غدت هذه الابتسامة الذبيحة جزءا من شفتى ‥ تمثال نحاسى ؟ الى متى أبتسم ؟ الطير الذبيح يرقص من الألـم ‥ ! :

ـ لابد أنه يؤثر الاستماع على التحدث ٠

عندما ذهبت اللصوص :

ـ اننا نعمل لمصلحتك ٠

ـ بل تعملون لمصلحتكم أنتم ·

ـ لمصلحتنا المشتركة ·

ارتفع صوت امرأة عجوز :

ـ لقد استجاب الله لدعواتنا · وعـاد الكردان الذهبى ·· المال الحلال لا يضيع ·

الوجوه باسمة · الا وجهه ؟ رغم الابتسامة الملتصقة بشفتيه؟ حقيقة أن الكردان الذهبى عزيز على · كان شبكة زوجتى منذ آلاف السنين · تحرص عليه كحياتها · عندما نزعه اللصوص من عنقها · حاولت أن تصرخ · لطمها أحدهم على وجهها · ماتت الصرخة على شفتيها · أصابها الخرس · فكرت فى الذهاب الى المحكمة :

ـ المحكمة حبلها طويل ·

ارتفع صوت خشن :

ـ اذا لم يكن معك نقود الآن ·· سوف ندفع لك ثمن العجل و ·· و ·· نظرة الى ميسرة ·

من أين أسدد ·· ؟ كل شىء من لحم جسدى ·· من دمى ؟ حينما اقتحم اللصوص دارى · كنت نائما · أحسست بصرير باب الدولاب · فتحت عينى · رفعت رأسى · اصطدمت بفوهة بندقية · وجدت وجها حربائيا · أنفـا معقوفا · عينين ثعلبيتين · ينطلق منهما وعيد · أعلن أحـد اللصوص ·· أنه لم يعثر على شىء فى الدولاب · امتدت يد الممسك بالبندقية نحو صدر زوجتى · انتزع كردانها الذهبى · دسه فى جيبه ·

عاد صوت العجوز :

ـ لماذا لا تقيم حبال وعناقيد الأضواء الملونة على دارك ·· ؟ كنا ننتظر هذا اليوم بفارغ الصبر ·

عندما هم اللصوص بمغادرة دارى ·· هز سارق الكردان الذهبى رأسه · غمز بعينه الثعلبية :

ـ اذا أردت أن تسترد كردانك الذهبى ·· تعال الينا ·· فى العزبة ·

أشعل سيجارة · تراكمت على ذهنى سحب الدخان ؟ فى الصباح كانت زوجتى تشعل الفرن · ملأ الدخان المندرة ·

رحت أسعل :

ـ هل تشعلين العرصة بقش مبتل ؟

هزت رأسها نفيا · تذكرت أن الخرس أصاب لسانها منذ أن انتزع اللصوص كردانها الذهبى من حول عنقها ·· ولطمها تلك اللطمة القاسية على وجهها ·· ! :

ـ نريد أن تكون ليلة من أروع الليالى ·· ألف مبروك ·

منذ عامين رسب ابنى فى الامتحان · كلما قابلنى احد من أهل القرية :

ـ ماذا فعل ابنك فى الامتحان ؟

ـ الحمـــد لله ·

ـ ألف مبروك ·

ـ أين الحلاوة ·· الشراب ؟

كانت كلمة مبروك ·· تحز فى قلبى ·· كسكين ثالمة ·

جذب نفسا من سيجارته · عندما ذهبت الى العزبة · أخذ اللصوص ينظرون الى من تحت أهدابهم الزغبية ·· فى دهاء الصائد الماكر · الخبيث ·· وابتلعت الطعم · ثم بدأوا يجذبون السنارة برفق وهوادة ·· كانوا يتحدثون · يملون على شروطهم · لم أستطع

أن أرفع رأسى من بين قدمى . لم أجد سوى كلمة .. موافق ..
على كل شرط يفرضونه على .. لكى أسترد الكردان الذهبى ..
لو رفضت شرطا من شروطهم .. لطردونى من العزبة .. علم
الجميع أننى ذهبت اليهم بقدمى .. ملأت الفضيحة العب .. كله
.. كيف أعود من منتصف مستنقع الوحل .. ؟ لقد تورطت .
لماذا لا أداوى الوحل .. بالوحل ... !

سحق الثعابين الزاحفة من فوهة سيجارته تحت بلغته ..
ليتنى أستطيع أن أخنق المخاوف التى تتشعب فى أعماقى .. ؟
كيف خدعنى اللصوص ؟ لماذا وافقت على مطالبهم المجحفة .. ؟ أين
كان عقلى وكبريائى .. ؟

مرمطوا بى الأرض .. ذات مرة حاولت رفض أحد شروطهم :

ـ أنسيت أن العصا كفيلة بمعالجة عنادك ؟

الرياح تزأر .. شواشى الأشجار تنحنى . تكاد تكنس التراب .
لم يكن هناك مفر من الانحناء .. ؟ الموافقة على شروط اللصوص .. ؟
حتى أسترد كردان زوجتى الذهبى .. ؟ فاقت ألاعيبهم رمال
الصحراء عددا . خداعا .. !

الكلمات تتناثر حوله من الأفواه . الأفكار راكدة فى رأسه ..
بحيرة ساكنة .. ! :

ـ ماذا قلت ؟ ستقيم ليلة لم يشهد العب مثلها بمناسبة
عثورك على كردان زوجتك الذهبى .. ؟

**ابتلع زفرة نارية كادت أن تفلت منه . لم يعد يحتمل طعنات
السكاكين الثالثة :**

ـ يا جماعة .. يا عالم .. أنتم لا تعرفون الحقيقة .

ـ نعرفها .

استل آهة مشتعلة من أعماقه ..

ماذا قالوا ؟ يعرفون الحقيقة .. ؟ يخفونها طوال تلك السنوات .. ؟ كانوا يعلمون بترددك على العزبة .. ؟ من الذى أخبرهم .. ؟ زوجتك ؟ لم يفلت لسانها من مخالب الخرس الا منذ ساعتين .. ؟ ساعتان كفيلتان باطلاع القرية على أسرار العب كله..؟ لكن زوجتك ليست ثرثارة .. لابد أنه ابنك .. وعدك ألا ينبس بحرف من وراء ظهرك .. أكمل اللصوص طعناتهم فى الظهر .. !

قبضت يد شوكية على قلبه . تحول القلق المتدفق فى شرايينه الى خوف .. استحال الخوف الى رعب .. ؟ تأكد له ما كان يخشاه .. قد وقع ؟ عقب سرقة الكردان لم أستطع رفع عينى أمام أهل القرية .. على الرغم من ادعائى أنه ضاع وهى تغسل الأوانى النحاسية على الموردة . أو سقط من صدرها وهى تجمع سنابل القمح المبعثرة .. بعد أن رده الى اللصوص .. اليوم .. أصبحت نظراتى لا تفارق قدمى ... ! :

ـ سبحان الله .. كردان ذهبى .. يضيع سنوات طويلة . ثم يعثر عليه .. ؟ والله هذا حدث يستحق ذبح عجلين .. على الأقل .

عندما سرق اللصوص كردان زوجتى .. كان الجرح بحجم الكردان . كلما هنأنى أحد .. يتسع الجرح .. أخشى أن يصبح باتساع القرية ... !

أقبل ابنه . لماذا ينظر الى وجوه أهل القرية بعينين ذاهلتين ؟ :

ـ ماذا هناك .. يا جماعة ؟

ـ جئنا نهنىء أباك .. لقد عثر على الكردان الذهبى الضائع .. بعد أن فقد الأمل فى عودته . نطلب منه أن يقيم وليمة لأهل الله .

ـ كان الكردان ضائعا ؟ أتعرفون الحقيقة ؟

ـ نعم .. نعرفها .

ـ أمثل هذه الأمور .. تخفى علينا ؟

أخبر اللصوص أحدا من أهل القرية .. ؟ نشر الخبر ؟ طلب اللصوص منى أن أؤجر لهم حجرتين فى دارى . لماذا قبلت ؟ كيف يضم الحمل والذئب بيت واحد ؟ :

ـ أتريدون أن تصبح دارى مأوى لكم ؟ تصير القرية سوقا.. لتجارتكم .. ؟

ـ لم لا ؟

ـ هل سيقبل أهل القرية التعامل .. معكم ؟

ـ ها هى .. فرصتك . لو انتظـرت قليلا دون أن تعلن موافقتك .. سيخرج الأمر من يدك .

تلفت حوله . أين ذهب ابنك ؟ لماذا ؟ صعد فوق ظهر الفرن ؟ لماذا وقف أهل القرية أمامه؟ يتطلعون الى وجهه ..؟ هل سيخبرهم بشىء .. ؟ ما هو .. ؟ منذ أن سرق اللصوص كردان زوجتك .. ادعيت ضياعه . وأنت ترتدى قناعا . ظن أهل القرية أنه وجه حقيقى ... !

ارتفع صوت ابنه :

ـ من الذى زعم أن الكردان .. كان ضائعا ؟ انكم تجهلون الحقيقة .. سأوضحها لكم ...

مغارة على بابا

١

تدفق دم الغروب على صدر القرية • انتقل بصرى بين سراى شيخ الخفراء ودارى المهدمة • مضغت بين أضراسى احساسا مرا •

جاءنى صوت زوجتى :

ـ ما رأيك لو بعنا قيراطين •• وأعدنا بناء دارنا ؟

ـ •••••

ـ خلاص •• نبيع الجاموسة •

ـ •••••

ـ أى الاقتراحين •• اخترت ؟

ـ الأول مر •• الثانى علقم •• !

ـ ماذا قال لك سامى ؟

ـ سيأتى بعد قليل •

السماء صافية . سحب الحزن والكآبة تغمر صدرى :

ـ أخشى أن ينسى سامى موعده معك .

كيف ؟ لقد قال لى اطمئن . سوف ألحق بك . تركت كلماته الحلوة أثرا جميلا فى نفسى . ؟ لماذا لم أحس بصدقها . دفئها .. الآن ؟ أتراه ما زال يذكر حكاية سرقة التمثال الكبير .. ؟ ماذا أقول له عندما يأتى ؟ :

« الشتاء على الأبواب . الدار مكشوفة للمطر والرياح من كل جـانب » .

« أعرف ذلك » .

« الأسمنت والحديد غير متوفرين » .

« بل كل شيء موجود » .

« أين .. ؟ فى مخالب جماعة من المضاربين .. ؟ » .

تكورت بجوار جدارى المنهار . سياط البرد تلسع عظامى . مددت بصرى نحو نباتات الطماطم المزروعة على شاطىء الترعة . تلتحف بالقش .. ؟ ليس فى دارى لحاف .. حصير الصيف .. واسعة .

مرت أيامه كالبرق . كنا نفترش العراء .. لكن الشتاء ..؟ كلما أقبل ليله يخيل الى أن وحشا يتربص بدارى . سيفترس أولادى .. !

حط بصرى على مئذنة المسجد :

ـ ماذا بك يا سعيد ؟

ـ ألا تعلم يا مولانا ؟

ـ ليست دارك وحـــدك التى نال منها الحريق .. تفاءل بالأمل .. تجده .

ــ هذه ثالث مرة يأتى عليها الحريق ٠

تنهدت :

ــ الأحزان كالزرع اذا راعيتها ٠ نمت ٠٠ ترعرعت ٠ اذا أهملتها ٠٠ ذبلت ٠٠ ماتت ٠

لا يكف لسان جدتى عن ترديد هذه العبارة ٠ عندما ترى ظلال الحزن على وجه انسان ٠ لو أتت النار على دارها ثلاث مرات٠ هل كانت أحزانها تذبل ٠ تموت ؟ أو تترعرع ٠٠ تصبح أشجارا ؟

بعد أن تركت مجلس سامى ٠ نهض زاهر ٠ سار بجانبى :

ــ أتظن أن سامى ٠٠ ؟

ــ من المؤكد أنه سيلحق بك ٠ ويحقق مطالبك ٠

زحفت عيناى نحو دار خليل الصياد :

ــ لماذا لا تثور القرية فى وجه سامى وأقاربه ٠٠ كما هبت فى وجه مخلوف وأقاربه من قبل ٠٠ وطردتهم ٠ ؟

ــ هل يستطيع السمك أن يعترض طريق الحوت ؟ سامى يسعى الى وضع يده على كل شىء فى القرية ٠٠ !

حينما مددت يدى مصافحا سامى ٠ ابتسم ابتسامة مسائية :

ــ أشكرك على هذه الزيارة ٠

ما هذا الظرف الذى حط عليه ٠٠ فجأة ؟ وضعنى داخل دائرة محبته ؟ بلا ٠٠ مقابل ؟ لابد أنه يسعى للاستفادة ٠٠ ماذا أملك ٠٠ ؟ لم يعد يذكر حكاية اتهامى له بسرقة التمثال الكبير٠٠؟ أراد أن يصنع من كلماته خيمة من حرير يغطى بها أطماعه ٠٠ قاذوراته ٠٠٠ !

تعلق بصرى بدكر توت رمضان عطوة . بعد أن احترقت داره . نصحه زاهر بالذهاب الى سامى :

ـ رفضـت الذهاب اليه أيام العـز .. أأذهب اليه وداری خـرابة ؟

كيف تورط رمضان وباع لسامى حجرتين فى داره ؟ :

ـ أخذ زاهر يزن فى أذنى..سوف يقدم سامى اليك الأسمنت والحديد.لن يكلفك الأمر سوى بيع دكانين له..يزيد دخلك..و..

ركب ابن خليل حماره :

ـ أبوك غاضب عليك .

ـ لمـــاذا ؟

ـ لأنك تسير مع عكاشه .

ـ بصراحة .. جذبتنى نحوه كلماته التى تعلمها من مخلوف .. على الرغم من أننى لم أفهم مغزاها جيدا .

نبح كلب عبد الحسيب :

ـ الى متى تسير القرية فى ركاب مخلوف ؟

ـ لقد استرشدنا بمن لا يرشد .

نهضت زوجتى . لماذا سارت نحو الجاموسة ؟ ستسحبها الى الترعة لتسقيها ؟ ستلقى أمامها حزمة برسيم ... !

اطلت فى ذهنى صورة عكاشة :

ـ زعم شيخ الخفراء أنه سيخفف الفوارق الزاعقة بين من فى أيديهم كل شىء ومن لا يملكون شيئا .. ماذا كانت النتيجة ؟

ـ كثرت فى قريتنا السرايات التى تملأها الأشجار ونبـاح الكلاب ..

ـ مع مقدم سامى الى قريتنا ظهرت جماعة الخطافين والطفيليين على حساب الكثرة المستضعفة ٠

نظرت نحو مستشفى الوحدة المجمعة :

ـ ذهب مخلوف ٠٠ ثم جاء سامى الى قريتنا يا دكتور ٠

ـ سامى ومخلوف وأقاربهما كالجراثيم ٠ لا تنال الا من لأجسام الضعيفة ٠

الأسبوع الماضى قابلت رمضان ٠ **كان الحزن يبتلع وجهه :**

ـ ماذا بك ؟

ـ أهل القرية أكلوا وجهى ٠

ـ لماذا ؟

ـ حكاية الرجل الغريب الذى اشترى حجرتين فى دارى ٠

ـ لست أول ولا آخر من باع لسامى نصف داره ٠

ـ أصبح همس أهل القرية صياحا ٠٠ غمزاتهم كالسكاكين ٠

٢

يوم أن حضر سامى الى قريتنا ٠ وقف عكاشة فوق سور كوبرى الأسمنتى :

ـ يا جماعة ٠٠ استيقظوا ٠٠ سرقتكم السكين ؟ دققوا ٠ انظروا ٠ حولكم ٠ لا تحدقوا بعيون فارغة ٠ المصائب ٠ البوار مقبل على القرية ٠

صرخ زاهر فى وجهه :

ـ أى بوار يا قصير النظر ؟ ألم تسمع حديث سامى الذى يحيى القلوب ؟

ـــ كلمات حلوة لكن ماذا وراءها ؟ ماذا تنتظر من تاجر جشع؟ سيقدم الى القرية جنيها . يبسط مخالبه ليلهف مائة جنيه .. أليس كذلك .. ؟

ـــ لقد وعدنا .

ـــ وعود الذئب للحمل .

شمس الغروب تلقى أشعتها على زجاج نوافذ سراى شيخ الخفراء . قصر قباني القرية و .. ؟ تسخر من بيوتنا المهدمة ..!

بعد أن فشلت كلمات شيخ الخفراء . عاد يسقينا خمر الصبر . من يخالف رأيه يعتبره متهورا .. !

لمحت فقيه المسجد يسير نحو الجامع :

ـــ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون .

بعد أن دق مخلوف واقاربه جذورهم فى أرض قريتنا . تشاجروا مع فقيه القرية :

ـــ أنت سبب تخلف هذا البلد .

ـــ أنا أكثر منكم تطورا . هدانى تفكيرى الى طريق الله . أما أنتم وعقولكم لم تعرفوا الطريق الى الله .. أينا أكثر تخلفا ..؟

صاحت دجاجة من جوف دار فريد أبو العينين :

ـــ وعدنا سامى وأقاربه أنهم سينشئون مزارعا للدجاج وأن ثمن الدجاجة سيصبح كثمن البيضة .

ـــ بعد أن ملأوا القرية بمزارع الدجاج . صار ثمن البيضة كثمن الدجاجة . لا نعرف ماذا سيكون ثمن الدجاجة .. !

ألقيت ببصرى نحو الجامع . ذات يوم تشاجرت مع مخلوف :

ـــ ربنا على كل ظالم .

ــ ماذا تعرف عنه ؟

ــ من ؟ الظالم ؟

ــ لا ٠٠ ربك ٠

ــ ربى ٠٠ ؟ لماذا لا تقول ربنا ؟

ألقت زوجتى حزمة برسيم أمام الجاموسة ٠ أرى في عينيها٠ حيرة ٠ قالت لى مرة :

ــ أهل القرية يتساءلون ٠٠ الى متى سنترك دارنا خرابة ؟

فى اول لقاء لسامى بأهل القرية :

ــ سيكون الحاضر أفضل من الماضى ٠ المستقبل أكثر اشراقا من الحاضر ٠

كلب عبد الحسيب يتسكع فى الخرابة الواسعة التى تحتضنها الترعة والوحدة المجمعة ٠ طول عمرنا نسمع ٠ نحلم بأن تصير هـذه الخرابة حيا صناعيا : يعمل فيه آلاف العمال ٠ يسـدون احتياجات القرية من أسمنت ٠ حديد ٠ مبيدات حشرية ٠ و ٠٠ أو تصبح واحة خضراء تزرع فيها الخضراوات والفاكهة ٠ كم مرة وعدنا مخلوف بذلك ؟ مائة مرة ٠٠ ؟ ألف ٠٠ ؟ ٠٠ ثم جاء سامى ٠٠ كرر نفس الكلام و ٠٠٠ ما زالت باقية يرتع فيها الكلاب ٠ يضـع فيها أهل القرية السباخ ٠ صارت مراحيض ٠٠ بعـد أن احترقت دورهم ٠٠٠ !

وقف كلب عبد الحسيب على شاطىء الترعة ٠ تذكرت طرفا من حوار دار بينى وبين زاهر :

ــ ذهب مخلوف فى ألف « كسعة » وجاء سامى ٠٠ سوف ترون ماذا سيفعل ٠٠ ؟

ــ ذهب كلب وجـاء ذئب ٠

ـ لماذا تتعجلوا الأمور ·· ؟ لماذا لا تتقبلوا الحياة كما هى ·· الآن ؟ ··

نظرت نحو الترعة · عندما يتدفق ماؤها فى الأرض البكر·· تخط لها مجارى فيها ·

اقترب كلب عبد الحسيب من نباتات الطماطم · عقب طرد مخلوف وأقاربه من قريتنا ·· ارتفع نباحهم · نشط عكاشة :

دودة تسعى فى الظلام :

ـ الفلاح نهب الأرض من المالك · العامل سرق رأس المال من صاحب المصنع ·

٣

حينما أعاد رمضان بناء داره · بكت زوجته :

ـ بعد أن كانت دارى وحدى خالصة ·· أصبح لى · فيها شركاء ؟ كان على بابها غرارة ·· لكن لم يكن أحد يدخلها الا اذا صفق · جاءه اذن بالدخول · كيف أجلس أمام الفرن · أذهب الى المرحاض ·· عيون زرقاء تتلصص على ·· !

مرقت سيارة رئيس الجمعية الزراعية · سبحان المنعم · بعد أن كان يسعى وراء الشلن ·· أصبح يملك دفترا للشيكات ·· من لا شىء صار من الأعيان ·· ؟ يتظاهر بالعفة وهو فى السر يبتلع غذاء الأرامل · اليتامى · كرشه المحشو طمعا · جشعا ·· متى يعرف الشبع ·· ؟

صعد فريد فوق سطح داره :

ـ نهب مخلوف وسامى خيرات القرية · جعلا منها سوقا لهما ·

سرقا التماثيل التى كانت تملأ الأجران وشوارع القرية ·· بأى وجه سنقابل أجدادنا ··· !

ذات ليلة رأيت أقارب سامى يحملون التمثال الكبير الذى يتوسط جرن الترعة · وضعوه فى مركب · استيقظت القرية على دقات قبضتى الغاضبة المجنونة على أبوابها · ملأت الطواقى ·· التثاؤب · الدهشة الجرن · **لوح شيخ الخفراء بخيزرانته** :

ـ كل واحد يذهب الى داره · الصباح رباح ·

ـ لو انتظرنا حتى يأتى الصباح ·· فسوف يختفى المركب الذى يحمل التمثال ·

ـ أخبرنى سامى منذ أيام أن أرض الجرن رخوة ·· ربما يكون قد حدث بها انهيار ·· وابتلعت التمثال ·

ـ كان يمهد لسرقة التمثال ··· اذن ؟

ـ أين آثار الانهيار ··· ؟

ـ هل تصدق سامى ·· وتكذب سعيد ؟

انهالت عصى الخفراء على الظهور ·· الأكتاف · الرءوس · طارت الطواقى · اندفع كل واحد الى داره · أطلقت زفيرا ناريا · لم يعد الخفراء يستطيعون رفع عيونهم فى وجوه اللصوص · ؟ ألفنا رؤية الفيران تمرح أمام شوارب القط الأسود · تعتلى ظهره ·· العريض ؟

التفت نحو الترعة · طفا وجه خليل :

ـ تخلصت القرية من مخلوف وأقاربه ·

ـ ما زالت أفكارهم فى رأس عكاشة والقليل من أهل القرية· يرتدون ملابسهم المشجرة ·

تشاجر خليل مع ابنه :

ـ ذهابك الى مجلس عكاشة ·· كجلوسك في دكان حداد القــرية ·

أقبلت زوجتي · ما زال الحزن يصرخ في عينيها ؟ متى تخضر العيون بالضحكات ؟ تنفض الشوارع عن ظهرها الأتربة المسحوقة ؟

بعــد أيام من اختفاء التمثــال الكبير · جاءت سيارة تحمل صناديق مملوءة بزجاجات الزيت · وزع سامي على كل واحـــد زجاجة ·· نسى أهل القرية حكاية سرقة التمثال الكبير ·

كثيرا ما أحس بأن الحياة حولى خرابا · خالية من كل معنى· الواقع غير واقعى ·· ؟ الحقيقة زيف ··· ! :

ـ قبل أن نعرف مخلوف وسامى · كان الصدق · المحبة · تنبض بها القلوب ·

ـ فقدنا اشراقة القرية و ··

ـ لقد أنزل مخلوف وسامى بقريتنا البوار ·

وضعت زوجتى يدها على كتفى :

ـ كل عقدة ولها حلال · خفف من أحزانك ·

عندما كنت أعيد بنــاء دارى · ألقى رمضان على السـلام · سألنى :

ـ لماذا لا تغنى يا سعيد ؟

ـ كيف نغنى في زمن الحزن ؟

كلما ادخر أحدنا مبلغا من المال · فكر في شراء جاموسة · قيراط أرض · وعد زوجته بأن يبــدل الأساور الزجاجية بأساور ذهبية ·· ينقض أهل العزبة على دورنا · يلقون عليها كرات من القماش المشتعل ·

ألصقت ركبتي الى صدرى · أجلب الدفء الى جسدى ·· ؟
في هذا المكان جلس زاهر بجانبي :
ـ سيعالج سامى كل مشاكل القرية و ··

ـ عندما جاء مخلوف الى قريتنا ·· قال نفس الكلام · أخذ يراوغ و ·· تسلل الى أهدافه خفية كالميكروب ·· طردته القرية · تركها خاوية على عروشها ·

ـ سوف ينهج سامى نهجا جديدا ·· يأخذ بيد القرية ·· تتخطى كل الصعاب ·· الى بر الأمان ·· وسنجرب ·

ـ هل بقى للقرية « حيل » لمزيد من التجارب ··· ؟

٤

توقفت سيارة فارهة· نهضت زوجتي· سارت نحو الجاموسة· انتفضت من مكانى · لماذا ابتسم سامى ؟ سرته هذه الحركة ؟ هذا يرضيه ؟ تنتفخ له أوداجه ؟ ترضى كبرياءه ؟ من أين أبدأ معه الحـديث ؟ :

« الحريق أتعب · أجهد القرية كلها »

« أعرف هذه »

« الأحزان يستنشقها أهل القرية »

« أسمع فى أرجائها ضحكات »

« تنطلق من الأدوار العليا لأصحاب السرايات والسـيارات المرسيدس » ··

صافحت اطراف انامله الحريرية يدى الشوكية :

ـ كيف حالك ·· يا سعيد ؟

يقولون ٠٠ الضربة فى الرأس توجع ٠ ما بال ثلاث ضربات؟ منذ أن عرفت القرية مخلوف ٠ ثم حللت بها ٠ أصبحت الكآبة ٠ الهموم تملأها ٠ نظل سنوات نضع طوبة على طوبة ٠ نعيد بناء دورنا ٠ اشارة منكما ٠ همسة فى آذان أهل العزبة ٠ تطفح صدورهم بالحقد ٠ تتحرك طبيعتهم الثعبانية ٠ يقذفون كرات القماش المشتعلة فوق سطوح دورنا ٠ تصبح أطلالا ٠٠ فى دقائق ٠

أول امس قابلنى رمضان ٠ كان الهم يغرق تجاعيد وجهه :

ـ أصبحت رأسى تملأها العيون المتلصصة الزرقاء ٠ همسات نارية تنطلق من أفواه أهل القرية ٠٠ ليتنى سمعت مشورة زوجتى٠ حذرتنى مرارا ٠ لكننى تصرفت دون أن أفكر ٠ ظننت أن سامى سيحل جميع مشاكلى ٠

ـ ألم يدفع لك سامى ثمن نصف دارك ؟

خاض كلب عبد الحسيب فى الوحل ٠٠ شعور لزج يحتوينى٠ فى الصباح عندما كنت أغمس اللقمة فى طبق العسل الأسود ٠ حطت ذبابة عليها ٠٠ طوحت بيدى فى عصبية ٠ طارت ٠ عادت٠ مرة أخرى ٠٠ ! :

ـ خد ٠٠ خد يا سعيد ٠

قلبت علبة السجائر فى يدى ٠٠ عليها حروف بلغة أجنبية٠ لا أعرفها ٠ لو كانت هديتك شيكارة أسمنت ٠٠ أسياخ حديد ٠٠؟ لأقمت جدارا فى دارى ٠ لكن علبة سجائر ٠٠ ؟ الكل يتحدث ٠ يعرف مضار التدخين ٠٠ !

هتف زاهر :

ـ هذه عينة ٠٠ مجانا ٠

بلا ثمن ؟ أم طعــم ؟ عنـــدما يسرى مفعولها فى تلافيف الرأس ٠ يعرف الطريق الى دكاكين سامى ٠ يشترى منها بأغلى الأثمـــان ٠٠ !

زادت ابتسامة سامى اتساعا :

ـ سجائر من نوع فاخر ٠٠ يا سعيد ٠٠ هدية منى اليك٠

يوم الجمعة الماضى ٠ كنت أجلس أمام تليفزيون قبانى القرية٠ رأيت فيلما أجنبيا ملونا ٠ كان البطل ٠ أقصد الهيكل العظمى ٠ يخفى وراء ظهره سيف الموت ٠٠ اليد الأخرى تحمل سلة بها تفاح٠ يقدمها لزائره ٠

سحبت زوجتى الجاموسة ٠ تألق كردانها الذهبى على صدرها٠ عرضت على بيعه ٠ لماذا رفضت ؟ لم لا أبيعه وأشترى ثلاثة آلاف طوبة ٠٠ و ٠٠ لكنه كان شبكة زوجتى ٠٠ كيف أفرط فيه ٠٠ اليوم ؟ منذ عشرين عاما احترقت دارى ٠٠ خلعته زوجتى :

ـ بع هذا و ٠٠

ـ لا ٠٠ سأبيع البقرة والحمار ٠٠ لن أبيع الكردان ٠

٥

مطفأ العينين ٠٠ جاء :

ـ لماذا لا تقدم الى الأسمنت والحديد ٠٠ يا سامى بك ؟

هتف زاهر :

ـ يا عبـد الحسيب ٠٠ ســامى بك لم يرفض طلبك ٠٠ ولكن ٠٠

ـ لن آخذ شيئا صدقة ٠٠ سوف أدفع ثمن الأسمنت و ٠٠

لماذا أخفى سامى عينيه وراء نظارة لامعة ·· ؟ يدارى فيهما دهاءه · جشعه ؟ على شفتيه ابتسامة ليمونية ·

عقب مجىء مخلوف الى قريتنا · تشاجر معه فقيه المسجد :

ـ كنت تائها ·· فآويناك ·

مازال فريد فوق السطح :

ـ لماذا يقدم سامى الينا الزيت والتفاح و ·· كهدايا ؟

ـ يكفر عما بدر منه نحو قريتنا ·

هتف سامى :

ـ كان بودى أن أعطيك الأسمنت اللازم لاعادة بناء دارك ·· يا عبد الحسيب · لكن شيخ الخفراء سوف يحتاج الى مئات الأطنان من الأسمنت والحديد ·

أعرف شيخ الخفراء ·· كما أعرف محتويات حافظة نقودى · يريد أن يصبح من كبار تجار القرية ؟ :

ـ سيشترى أهـل القـرية الأسمنت والحـديد ·· من شيخ الخفراء ؟

ـ نعم ·· ثم أننى عرضت عليه فكرة اقامة دوار · بناء شامخ سيكون مجدا له ·

دوار ؟ أنت تخطط ·· شيخ الخفراء ينفذ ·· ؟ لقد ضرب كل من أبدى رأيا مخالفا لرأيه · دخلوا الجحور · أعلن ·· لا قهر بعد هذه الضربة ·· كل كذا سنة يكررها ·· كأهل العزبة تماما ·

قبل أن نلتقط أنفاسنا ·· ينقضون علينا · يحرقون دورنا· لماذا يبنى شيخ الخفراء دوارا كبيرا ·· الآن ·· ؟ ليلقى فيه ضحاياه الأبرياء ؟ تغرق بين جدرانه الصخرية العالية ·· صرخاتهم ؟ يبتلع

الأحياء .. والطوب . الأسمنت ؟ كيف .. من أين نبنى دورنا ؟ كان التراب فى الماضى بلا ثمن .. نجده فى كل مكان . أصبح الآن بسعر الذهب .. لا نعثر عليه .. الا بشق الأنفس ... !

منذ عشر سنوات صارت دارى خرابا صفصفا . قدمت الى زوجتى كردانها الذهبى . رفضت بيعه . بعت قيراطين من الستة قراريط التى أمتلكها . وضعت يدها على خدها :

ـ اذا لم يتوقف طوفان الحقد فى صدور أهل العزبة .. فسوف نبيع أرضنا .

ـ مخلوف وسامى يوغران صدور أهل العزبة بالكراهية نحونا .

غادر رمضان داره :

ـ اذا لم أبع لسامى حجرتين فى دارى .. فمن أين أدبر نقودا لأعيد بناء دارى .. ؟

ـ هناك ألف وسيلة و .. وسيلة . لا داعى لأن يشترى رجل غريب نصف دارك . انه على وشك أن يشترى نصف القرية .

اقترب رمضان من المسجد . عندما طردت القرية مخلوف وأقاربه . أسرعوا الى عائلاتهم فى العزبة . « وزوهم » ضدنا .. تسللوا تحت عباءة الظلام . أحرقوا دورنا .. مخلوف يكيد لقريتنا . لكل قرية عرفت ألاعيبه . طردته . عكاشة يتحسر على أيام مخلوف فى قريتنا :

ـ كنا فى أمان ورفاهية .

هتف عبد الحسيب :

ـ يا سامى بك .. سأدفع ثمن الأسمنت .

ـ أعلم هذا ٠٠ لكن هل أقدم اليكم الأسمنت ٠٠ ولا أقدمه الى شيخ الخفراء وقباني القرية و ٠٠ و ٠٠ ؟

كيف ٠٠ هذا ؟ لقد أصبحت الأدوار السفلية للسرايات التي تلقي بظلالها ٠ تمنع الشمس عن دورنا ٠٠ مخازن للقمح والأرز و ٠٠ و ٠٠ الصوامع الطينية في بيوتنا خالية٠هجرها السوس٠٠!

حط بصري على نافذة فريد أبو العينين :

ـ سامي ومخلوف يحرضان أقاربهما في العزبة ضـــدنا ٠ لا يدعوننا نلتقط أنفاسنا ٠

ـ صرنا ككلاب السيجة في يد سامي ومخلوف ٠

ـ لا نعرف اذا كانت السجائر التي يقدمها الينا سامي ٠٠ هدايا أو تعويضا ٠٠ ؟

٦

هبت عاصفة في الخرابة ٠ في صدري كثير من الزوابع ٠ تذكرت حواراً دار بيني وبين خليل :

ـ صداقة سامي أصبحت مفروضة علينا ٠

ـ محال أن نقف في وجهه ٠

ـ كيف ؟

ـ هل تستطيع أن تشهر العصا في وجه الريح ؟

ـ لم يعد أمامنا ٠٠ سوى الصبر ٠

ـ لم نعد من لحم ودم ٠٠ صرنا من طين الصبر ٠

اشعل سامي ولاعته الذهبية :

ـ ماذا قلت يا عبد الحسيب ؟

مخلوف وسامى لصبان · رغم أن مزاجهما مختلف · طبيعتهما متناقضة · غرائز كل منهما تمضى فى اتجاه · الا أنهما يتفقان على هدف واحد ·· هو أن تظل طاقتنا موجهة الى بناء دورنا · تظل أيدينا ممدودة اليهما ·· غريق يطلب النجاة ··· !

رفع سامى نظارته عن عينه · لماذا غرق فى تأملاته ؟ عنكبوت نسج من حوله الخيوط ينتظر ·· ذبابة ··· !

الأسبوع الماضى صفع سامى فريد على وجهه :

ـ لا مفر من قبول صداقتك ·· هداياك ·

ألقى الجميع اللوم على سامى · اعتذر لفريد · قدم اليه علبة سجائر · أخذها فريد · لم يقدم لأحد سيجارة · نسى الصفعة · طبطبت على كتفه :

ـ سامى يداوى الجروح التى خلفتها لدغته · بلحسة مرهم ·

ـ ·····

ـ كيف يصفعك ·· يقبل رأسك ؟

ـ أكره سامى ·· القرية كلها لا تطيقـه · تلقاه بابتسامة مسلوخة · لا تقدر أن ترفض هداياه ·

هشم السكون صفير قطار · يوما ما · كنت أسير مع زاهر :

ـ أيهما أفضل ·· ؟ أيام كان مخلوف وأقاربه فى قريتنا ·· أم الآن ·· سامى بيننا ·· ؟

نظرت نحو القطار · أشرت الى العربة الأخيرة :

ـ نحن نركب « السبنسة » ·

أشعل سامى سيجارة فاخرة · منذ أسبوعين أعلن عن تقديم أطنان من القمح الى القرية · بعد ساعتين أقبلت مركب كبيرة ·

محملة بغرارات قمح :

ـ هل ستوزع الزكائب على أهل القرية ٠٠ ؟

ـ ستفرغ المركب حمولتها فى الشونة أولا ٠٠ ثم توزع على أهل القرية ٠

عدنا الى دورنا على أجنحة الأمل ٠٠ أعددنا الصوامع الطينية٠ ستملأ بالقمح لأول مرة منذ سنوات ٠٠ ؟ كنا نقول لأنفسنا لن يظفر كل واحد منا بأقل من أربع زكائب ٠٠٠ !

بعد أيام رأيت فى منتصف الليل عربة تقف أمام سراى شيخ الخفراء محملة بغرارات القمح ٠ ومثلها تقف أمام قصر قبانى القرية وعربة ثالثة تقف أمام سراى رئيس الجمعية الزراعية ٠٠٠!

جذب سامى نفسا من سيجارته ٠ عندما ذهبنا الى الشونة ٠ كان كل منا يحمل تحت ابطه الغرارات الفارغة ٠ طلب منا أمين الشونة أن نقف طابورا ٠ صنع أهل القرية سورا ثعبانيا حول الشونة :

ـ كل واحد معه بطاقة تموين ٠٠ سيأخذ نصف كيلة قمح٠

ـ زكائب القمح التى كانت تسد عين الشمس ٠٠ كل واحد يأخذ نصف كيلة ٠٠ ؟

غاب رمضان داخل المسجد :

ـ لو حققنا ٠٠ ؟

ـ من يحقق مع من ؟

ـ يبدو أنهم تقاسموا هدية سامى الى القرية و ٠٠ اقتسموا القمح ٠

اقبل عكاشة ٠ ماذا يريد ؟ الشهر الماضى قابلنى :

ـ لقد مات ابن قبانى القرية ٠

ـ قتلته التخمة ٠

قبانى القرية يبشر بالنزاهة ٠ القناعة ٠ لا يتوقف عن التهام المزيد من الثروات ٠

هتف سامى :

ـ اسمع يا عبد الحسيب ٠٠ أنا عندى فكرة ٠

ـ ما هى ؟

ـ سأقدم اليك الأسمنت اللازم لاعادة بناء دارك ٠٠ لكن على شرط ٠

مط عكاشة شفتيه ٠ هز رأسه :

ـ كل أهل القرية يعرفون ٠٠ هذا الشرط ٠

ـ كيف عرفه أهل القرية قبل أن ٠٠ أعلنه ؟

ـ ستقول ٠٠ اشتروا الأسمنت من شيخ الخفراء ٠٠ أصبح حاميها حراميها ٠٠ ؟

ـ هل التجارة حرام ؟

ـ تجارة ٠٠ ؟ أقطع ذراعى اذا لم ٠٠

وكزه زاهر :

ـ اقطعه من الآن ٠

اقترب عبد الحسيب من سامى :

ـ ما هو شرطك ؟

هتف زاهر :

ـ شرط سامى بك ٠٠ أن تبيع له نصف دارك ليقيم دكانين لبيع التفاح والعطور ٠

٧

لمعت على شفتي سامي ابتسامة٠٠ قط يرقب فأرا٠٠ الاحساس الوحيد الذى يجمعنا بسامي ٠٠ هو الذى يجبر المريض على تناول الدواء ٠

كان مخلوف يكذب ٠ يخدع أهل القرية ٠ وهو يدعو الى الصدق ٠ يعيش فى الوحل ٠ يبشر بالطهر ٠ كان يريد أن يصبح سـيد القرية ٠

وضع زاهر يده على كتف عبد الحسيب :

ــ لماذا لم ترد على سامي بك ٠٠ ؟ انه يريد أن يتحدث مع سـعيد ٠

ــ ماذا أقول ؟

ــ أترفض حسنة يقدمها سامي بك ٠٠ اليك ؟

ــ انني لم أسأله احسانا ٠

ــ هذه اجابة تتسم بالجفاء ٠

اقترب عكاشة مني :

ــ أريد قلة ماء ٠

تساءل زاهر :

ــ ألم ترو من بيرة ونبيذ مخلوف ؟

ــ ما شأنك يا ظل سامي ٠٠ بك ؟ كنتم تقولون ان مخلوف ملأ القرية دكاكين ٠٠ لقد تركها لسامي الذى حول الدكاكين الى وكالات ٠

ــ الأيام بيننا ٠٠ وعلى العموم بعـد قليل سوف نرى ٠٠ الرخـاء ٠٠

لماذا يتوعد زاهر عكاشة ؟ ألا ينسى حكاية القطة التى خطفت الطعام من تحت أنف الكلب ؟

منذ سنوات وسامى يلهف خيرات القرية . لم نر بشـارة الرخاء . الرفاهية التى تحدث عنهما . متى تثمر شجرة الرخاء .. هـذه .... !

نظرت نحو دكر توت رمضان .

سحق سامى سيجارته تحت حذائه اللامع :

ـ ماذا قلت يا عبد الحسيب ؟

ـ .....

لماذا سكت عبد الحسيب ؟ لماذا ينظر نحو دار رمضان ؟ :

ـ عليه بصـباغ الليمون الذى أشار على ببيع نصف دارى لسامى وأقاربه . عندما كانت دارى خرابة .. كنت مرتاح البال. اما الآن جلبت لنفسى وجع الدماغ ..

التقت عينا عبد الحسيب بعينى زاهر :

ـ توكل على الله يا عبد الحسيب .. واعلن موافقتك . بع نصف دارك .. بداية مشروع جديد لك .

ـ واضافة جديدة لمتاعبى .

ـ الكثير من أهل القرية أعاد سامى بك بناء دورهم . باعوا له دكاكين وحجرات فى بيوتهم .

« كل من باع لسامى نصف داره . يسب . يلعن اليوم الذى وافق فيه على بيع حجرة أو دكان فى داره لرجل غريب » .

لماذا لا أقول هذا لزاهر .. ؟ . يسمعى سامى ؟ يعرفه ..!!

ـ كيف يشاركنى فى دارى رجل امتصت عيناه من سماء قريتنا زرقتها ؟ سلب شعره من حقول قمحنا وقت حصاده لونه الأصفر ٠٠ ؟

ـ سامى بك ٠ ليس رجلا غريبـــا يا عبد الحسيب ! ٠٠ أصبح منا ٠٠

كانت جدتى تقول :

ـ سامى ٠ مخلوف يكيدان لقريتنا منذ آلاف السنين ٠ لم يغلبانا بالذراع فى وضح النهار ٠٠ لجآ الى معدتنا ٠٠ جيوبنا ٠

بعد أن انزاح مخلوف عن قريتنا ٠٠ جاء سامى :

ـ صرنا كالفيران التى يجرى عليها الأطباء تجاربهم !

من الذى ألقى بهذا السؤال ؟ فريد أبو العينين ؟ فقيه القرية ؟ خليل ؟ أنا ٠٠٠ !

أسند سامى ظهره الى مقدمة سيارته ٠ همس زاهر فى أذن عبد الحسيب :

ـ اسمع كلامى ٠ لا تدع الفرصة تفلت من يدك ٠

أطلت فى ذهنى صورة امام المسجد :

ـ وقال الشيطان لما قضى الأمـر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ٠

ـ كل من سمعوا نصيحتك يلعنونك ٠ ويلعنون مشورتك السوداء ٠٠ يا زاهر ٠

ـ أنا ٠٠ ؟ لمـاذا ؟ حياة أهل القرية « زايطة » و ٠٠

ـ أتقصد حياة شيخ الخفراء وقبانى القرية ورئيس الجمعية الزراعيـة و ٠٠ و ٠٠ ؟ أم الذين باعوا لسامى وأقاربه أنصـاف دورهم ٠ ؟

امتدت يد سامى نحو مقبض سيارته :

ـ هل معك خمسمائة جنيه ٠٠ يا عبد الحسيب ؟

ـ ليس معى هذا المبلغ ٠

ـ ماذا تملك ؟

ـ ثلاثمائة جنيه ٠

ـ لا تكفى ٠٠ ألا تملك مبلغا آخر ؟

ـ أملك اللحظة ٠٠ الحلم ٠

ـ خلاص ٠٠ اما أن تبيع لى نصف دارك ٠٠ والا لا داعى للكلام ٠

من أين يدبر عبد الحسيب خمسمائة جنيـه ؟ يضع سامى العقدة فى المنشار لكى٠٠؟ ظننت أن نظرات عبد الحسيب المتوسلة سوف تلين قلبه الصخرى ٠ لماذا لا يعمر الخرابة الواسعة بمئات العمـارات وآلاف الدكاكين ؟ بدلا من أن يزاحم أهـل القرية فى مساكنهم ٠٠ ؟ لقد وضع يده على نصف دور القرية ٠٠٠ آ

جلس سامى خلف عجلة القيادة ٠ لماذا لم يتحدث معى ؟ نسى أنه جاء من أجل موعدى ٠٠ ؟

التفت سامى نحوى :

ـ يا سعيد ٠٠ على الرغم من أنك اتهمتنى زورا وبهتانا فى موضوع اختفاء التمثال الكبير ٠٠ الا أننى سوف أقدم اليك الأسمنت والحديد ٠٠ هل معك ألف جنيه ؟

ـ ألف جنيه ؟ لو فتشت جيوب ودور أهل القرية جميعا ·· لن تجد معهم هذا المبلغ ·· اللهم الا مع شيخ الخفراء وقباني القرية و ·· و ·· وزاهر ·

انساب آذان المغرب عبر سماء القرية · **ادار سامي محرك سيارته :**

ـ طيب ؟ ما رأيك في أن تبيع لي نصف دارك ؟

سرت نحو المسجد · تركت على شفتي كلمات ·· لم أقلها ·

فهرس

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٣٤٧٦

ISBN ٩٧٧ — ٠١ — ٦٠٩ — ٧

هذا الكتاب :

مجموعة من القصص القصيرة ، تدور حول ألوان من المقاومة السلبية والإيجابية في المجتمع ، كما تجسم مختلف أنواع الشرور ممثلة في الثعبان أو الذئب أو الطاعون أو الإنسان الظالم المعتدى على حقوق الآخرين .

وتحمل هذه المجموعة رائحة الريف المصرى بعبقه ونكهته وعبيره .



١٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب